

و. أميرة العروبة

روايات مصرية للحيث

38

الأخير

سافاري

Looloo

www.dvd4arab.com



مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصري شاب يجاهد - كما يقول الغلاف - على يبقى حياً ويبقى طبيباً ..

وحدة (سافاري) هي للبطل الحقيقي لهذه القصص ، و (سافاري) مصطلح غربي معناه (صيد الوحوش في أدغال أفريقيا) وهو محرف عن اللفظة (سفريّة) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين ثراء والباء لتحويل الكلمة إلى (سافاراي) .. لا أعرف في الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التي يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب في معرفة النطق الغربي لللفظة (سافاري) فلتتخيل أنها (صفري) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافاري) التي نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض في القرية السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهي وأهل متشككين وبيلة لا ترحم ..

الوحدة دولية لكن بظلم الفقير المعترف بالعجز والتقصير
شاب مصري عادى جداً ، فقط وجد كثيراً من عوامل الطرد في
وطنه فأتطلى يبحث عن فرصة في القارة السوداء .. أتطلى
ببحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطيبة
الكندية الرقيقة (برنات جونز) التي صارت زوجته .. ثم هناك
الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرزقة الذين لا يمزحون ،
والعلماء المخابيل وسارقى الأعضاء ..

هناك كما قلنا من الصبر أن تجمع بين شينين : أن تظل حياً
وتظل طبيياً .. لكنك تحاول .. في كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هي ما أجمعه لكم وأقصه لكم في شكل قصص ..
وقصصى هي خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعوطف
والسياسة لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن
يصب هذا الخليط في كلوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا
المجنون بعد إلا في مرأتى ..

تعالوا نبدأ وسنتهم كل شيء ..

يوم نموت سيمحو النسيم الرقيق آثار أقدامنا على الرمال ..
 بعدما يفتي النسيم ، ترى من يخبى الأبدية أننا مشينا ها هنا
 مرة في فجر الزمان ؟

أغنية حقيقية لقبائل البوشمن

1 - قرار إزالة

الليل لا يريد أن يتحرك ..

ضيف ثقيل سمح بتصور أنه هدية الأقدار لك ، وأنت لا تحلم
إلا باللحظة التي ينظر فيها لساعته ويعلن (حان الوقت عسى
أنصرف) .. لكنه لا يفعل .. لأنه وقع . لأنه خال من اللياقة .. لأنه
يتصور أنك مستمتع بهذا كله ..

وأنا أرمق الروسي مفكراً ..

أصته سخيطة .. إنها السفف مجسداً .. لكنها تظل مع هذا
أقرب الفروض للتصديق .. هناك في علم المنطق ما يدعى
بـ Ockham's razor (موسى أوكام) أو (قانون الشح) .. عندما
يوجد أكثر من تفسير لظاهرة ما ، فإن أبسطها هو الصحيح ..
الفنأة التي تزوجت وانقطع عنها الطمث وبدأت بطنها تتضخم ،
ليست مصابة بسرطان المبيض .. على الأرجح هي حامل !

هكذا يقدم لي الروسي تفسيراً بسيطاً يمسك بكل شيء في ذات
اللحظة ، لكنني ببساطة لا أصدق ..

« أمس عندما اختفى كحر هذا الرجل .. خرجنا من الكوخ
وكان هناك عدد من النساء والأطفال .. عندما كنت لوظفك
لصطدمت بالموضع الذي كانت فيه (مارثا) نائمة .. كان خاليها
أو هذا ما حسبته في الظلام »

« هل تجد أي تفسير منطقي لاختفائها من الطائرة ؟ الأمر
لا يحتاج إلى نكاه .. طائرة مغمورة بالرمال لا يوجد فيها إلا باب
واحد .. فتحناه أنا وكنت .. برغم هذا لم تجدها في الطائرة
وعليها أن تصدق أنها اختفت في الثواني التي لقينا فيها للوعسى ..
اختفت وأعلنت الرمال لتغطي الطائرة »

« ليتني أحرف .. كل ما أدره هو أننا والقعون في قبضة
ساحرة شريرة تعبث بالعقارب وتقتل البوشمن .. ساحرة جاءت
من نفس عالم (سكوتى سميث) .. باختصار : اعتقد أن (مارثا)
هي لقتها (سكوتى سميث) ! »

لكن إن كانت كلماته فشلت في كسب مصداقية عدي ، فقد
نجحت بشدة في أن تطرد النوم من عيني .. أين (مارثا) ؟ إنها
نائمة مع النساء ، بينما يقف محارب البوشمن الذي أطلقت عليه
(مطارد النحل) خارج الكوخ ، وقد ثنى ساقه لينصق كف قدمه
اليمنى في ساقه اليسرى .. يبدو أنها وقفة مريحة جداً .. إنهم
قادرون على الوقوف عدة ساعات بهذا الشكل ..

لا أعتقد أنه قرر عن الدفاع عنا على كل حال .. ليس من عتاة
المحاربين مثل (العماساي) و(الزولو) ، إن اليوشمن مسلمون
وقتهم موزع بين الصيد والحصاد والجنى .. الرجل الذي يطارد
النحل ليس بالتأكيد أصلاح من يحمينا من (سكوتى سميث) ..

عنى على الخيمة .. لو كان كلام الروسى صحيحاً لرأيتهما
تخرج .. ولو كان أكثر صحة لما رأيتهما أصلاً .. سوف تهاغتنى
من الخلف لتقطع حلقى ..

هكذا مضت الليلة بين الكوابيس والسنة والإفافة الكاملة
المذعورة .. لا أعرف كيف يترجمون hypnagogic state
لكنه يعبر بالضبط عن تلك الحالة الغريبة بين النوم واليقظة ..
قتلى ؟ لا أعتقد أن هناك قتلى ..

يبدو أن الأخ (سكوتى سميث) قرر أن يستريح ويريح ولو ليلة
واحدة ..

وعندما شعرت بأشعة الشمس تحرق أجفاني ، وعندما سمعت
الحركة والكلام من حولى ، وعندما راح نهباب الصحراء الصمغ
يحاول الالتحام فسى .. عندها نهضت فى حجل شاعرا بأننى عار
تماماً .. عندما تكون نائماً وسط حشد من القوم المستيقظين
تشعر بأنك مكشوف تماماً ..

نهضت متسائلاً عن برنامج اليوم ..

كنت منى امرأة ذلك (البوشمن) فنارلتنى ورقة شجر عليها
معجون كريبه .. هؤلاء القوم تعشوا نعلما ونا لم تقى إلا للفاكهة ..
الآن لنا مشعلز .. كانه كتب على ألا آكل لأسباب دينية أو بسبب
الاشملاز ..

هكذا وضعت الورقة جانباً وبحثت عن بعض الفاكهة الفامضة
وابتلت ثلاث أو أربع حبات ..

كانت الفتاتان (مارثا) و(سيمونيتا) الآن معاً وقد بدا عليهما
الانتعاش كمصبيتين .. لقد ناعمتا جيداً كما هو واضح، بينما أنا
و(فلسيلي) تصلح صورتنا للتعليق على جدار قسم (الوابلى) ..
ابحث مع الشرطة ..

قالت (سيمونيتا) :

- « ما هو برنامج اليوم ؟ »

قلت متعكر المزاج :

- « لا برنامج .. هؤلاء القوم تخنوا مسكنهم هنا .. لن يتحركوا ..

لو شئنا أن نرحل فهذه مشكلتنا نحن .. »

ونظرت إلى (مارثا) فى شك .. لا أصدق حرفاً من هولجسى ،

لكنى برغم هذا لا أحب أن أدير ظهري لهذه الفتاة لهذا ..

تحتاج إلى وقت طويل إلى أن تتعلم كيف تشق بفتاة خرجت
سالمة من حطام طائرة ، دون أن تفتح أى باب ، وتعبر الصحراء ،
وتحب العقارب ..

جلسنا على الرمال ننظر إلى الطبيعة من حولنا ..

قلت وهي ترفع يدها لتتقى الشمس الحارقة :

- « لا أعرف أين نحن بالضبط .. لكننا على الأرجح فى بتسواتا
أو قرييون من ذلك .. »

قلت لها وأنا أجمش الرمال فى قبضتى :

- « يا سلام ! نجتاز حدود دولة ذات سيادة إلى دولة ذات سيادة
بهذه البساطة ؟ »

لكنى كنت ذا خبرة فى أفريقيا .. أذكر جيداً كيف قننلت فى عملية
تسلى (كلبمنجارو) من (كينيا) إلى (تنزانيا) تدريجياً .. إنها تلك
النقط على الخارطة حيث يصعب رسم الحدود ، وحيث لا تلقى القبائل
بالأى حقيقة لها فى (كينيا) أو (تنزانيا) .. أردت أن أقول إننا
فى الحقيقة إذ توغلنا فى الصحراء إنما كنا كذلك نعبر الحدود إلى
(بتسواتا) .. هنا نحن أولاء لتحرك فى كالاهارى التى تستحيل

مراقبتها بدقة .. وبهذا نعبّر من سيادة دولة إلى دولة أخرى ..
الطبيعة كانت وستظل أقوى من الحدود الجغرافية .. بل هي تسخر
منها .. ليت حرس الحدود يقبضون علينا .. لكن أين هم ؟

قالت (مارثا) وقد ارتسمت الجدية على ملامحها :

- « هؤلاء البوشمن يعرفون أنهم يجب ألا يقتربوا أكثر ..
إنهم هاربون من الحجر ! »

حجر ؟ عم تتكلمين ؟

قالت فى جدية :

- « إن حكومة بتسوقا تحاول أن تحصرهم فى محميات ضيقة
يقيمون فيها .. محميات فى قلب (كالاهارى) .. فى الواقع ليس هذا
للحفاظ عليهم بل لإبانتهم .. نحن فى زمن لا يرحب بهؤلاء القوم
ولا يريدهم .. لا مكان للبوشمن فى عالم اليوم ، لهذا تصر حكومة
بتسوقا على تقييد حريتهم فى المحميات ، وفى الوقت ذاته تحرمهم
من أية وسيلة محترمة للعيش .. لا صيد ولا زراعة .. معنى
هذا أنها تعدمهم ببطء .. هناك بوشمن كثيرون فروا من هذه
المصكرات وتركوا أنفسهم لرحمة الصحراء .. الصحراء التى لم
تقس عليهم قط كما قسا الإنسان .. »

ثم أشارت إلى الأسرة التي نحن في ضيافتها ، وقالت :

- « هؤلاء الرون .. كنهم لو اقربوا أكثر لقبضت عليهم الحكومة ..
البتسواتية وألقتهم في المحميات .. على كل حال هي سياسة
ناجحة لأن عددهم انخفض من عدة ملايين إلى مائة ألف .. »

قلت لها في ذعر :

- « إن (سكوتى سميت) لم يكن يفعل إلا ما تقتضيه الحضارة .. »

قلت باسماء في مرارة :

- « كان صيد البوشمن نشاطاً رياضياً مسموحاً به .. وفي عام
1870 قارض آخر البوشمن من (الكيب) نتيجة لكثرة الصيد ..
آخر رخصة تسمح بصيد البوشمن أصدرتها ناميبيا عام 1936 ..
بعد هذا صار تجويعهم أقرب إلى التحضر .. »

شعرت بقشعريرة ..

شد ما تبلغ قسوة الإنسان بأخيه الإنسان .. أو أن صيد البشر
كان نشاطاً قانونياً حتى الثلث الأول من القرن العشرين ..
بداليون .. نعم .. متخلفون .. نعم .. لكن لهم الحق في الحياة
مثل أي واحد آخر .. إنهم تراث حضارى ثرى من الخسارة أن

يضيع .. لقد خلقهم الله ومن حقه وحده أن يزينهم من على
وجه الأرض ، وإلا وجدت من يرغب في إلالتى أنا نفسى يوماً
ما .. الحقيقة أن العرب سجدون بسهولة من يرغب في إلالتهم
فعلأ ..

إنها لعباء قاسية يا زميلى .. حقاً هي كذلك ...

★ ★ ★

2- فلنجرب حظنا ..

كان مطارد النحل جالسًا يتأمل آثار الصيد على الرمال ..

قالت لي (مارثا) وهي تراقب جلسته المتأمل:

- « اسمه (توى) .. »

قبل أن تلفظ الاسم طرقت بلسانها تلك الطريقة التي تذكره بصوت (توت توت) المستكرر .. هكذا عرفت أن الاسم يكتب هكذا: (Twt) .. لست غيبًا جدًا لو كنت قد لاحظت هذا ..

ثم أردفت:

- « هناك صبي مراهق في الأسرة اسمه (توى) .. ليس من أبنائه .. حسب قواعدهم الغربية يحق لأم (توى) الصغير أن يُعتبر (توى) الكبير ابنها .. و(توى) الكبير يُعتبر أخت (توى) الصغير أخته .. (توى) الصغير يُعتبر زوجة (توى) الكبير زوجته .. ابنة (توى) الكبير محرمة على (توى) الصغير لأنها تُعتبر ابنته ! »

ارتجفت للفكرة .. معنى هذا أن ابنة أي رجل يدعى (علاء) محرمة على .. ومغناه أن أي رجل يدعى (علاء) أنه أن يُعتبر (برنات) زوجته أبل إن أمي هي أم أي (علاء) في مصر !

لكن الأمر سهل هنا نسبياً لأن عند الجماعة صغير جداً ..

كان الرجل يراقب الأثر في حنكة وهو جالس في وضع القرفصاء لكنه يمشي للأمام .. طريقة مشي صعبة جداً كنا نجبر عليها في المدرسة للتقوية العسكرية على سهيل (التكدير) .. يبدو أن عضلات فخذي هؤلاء القوم من حديد .. التجاعيد تزدهم في وجهه وجبينه .. إن البوشمن يتجدد جلدهم بسرعة غير عادية وهذه صفة تميزهم .. الجلد الزيتوني المجدد .. دعك من علامات التركيز على وجهه كأنه رجل معادلة ذرية ..

قالت (مارثا) التي لاحظت اهتمامي بما يدور أمامي :

- « إنه يتلخص روث تيتل الغربي .. يمكنه أن يضمن من الحيوان من جفاف وصلابة الروث .. إنه يعرف منذ متى مر الحيوان عن طريق ملاحظة أعشاش النمل الأبيض التي يدمها الحيوان أثناء مشوه .. بعد فترة بعيد النمل بناء أعشاشه وهذه الفترة يعرفها البوشمن بالخبرة .. يعرف متى يستعيد العشب شكله الأصلي بعد مرور التيتل .. يعرف متى يعاود العنكبوت نسج شبابه .. عندما يصيب رمح البوشمن حيواناً فهو يتوقف أولاً لدراسة الأثر الذي تركه الحيوان ، قبل أن يلحق به .. هذه هي الخبرة التي لبقت البوشمن لأحياء حتى اليوم في هذه الطبيعة المعادية .. »

كان (توى) ينتعد بطريقته الغريبة ، فالتفتنى (مارثا) ممسكة بيدي إلى حيث جلست النساء يصنعن الأسهم ..

إنهن يمسحن العود فى الرماد ، ثم يقطعن نهايته بالجار الذى يضعنه فى وعاء فخارى .. ثم يلقفن حوله لحاء الشجر ، ويصنعن فى نهايته ثلماً يسمح بمرور وتر القوس .. وفى الطرف الآخر يخرسن قطعة مديبة من عظام الزراف .. ثم يقطعن قطعة للعظام بالسهم الذى يحفظنه فى قرن وعمل .. لاحظت أن النساء يخرسن الخرز فى جباههن ليزين كل تجعدة هناك ..

ليس من المعتاد لدى النوبثيين أن يملكوا قطعاً من الماشية أو يزرعوا .. إنهم (صيدان / جامعون) فقط ولا يعرفون شيئاً عن الملكية الغربية ..

قلت لـ (مارثا) :

« هؤلاء القوم هم أبناء الطبيعة .. إنهم نوع من اليهود والنصارى .. يبدو لى أن مطاردتهم وقتلهم مستحيلة .. فكيف استطاع البيض ذلك ؟ »

« الطبيعة لا تستطيع أن تراجع طنقات الرصاص .. »

فالتها ببساطة ولهضت لتجلس جوار النسوة لتعاونهن فى صنع السهام ..

نظرت إلى حيث كان (مطارد النحل) فوجدته قد تورى عن
عيني تماماً ..

عسى أن يجد التيتل الذي يبحث عنه ..

كان المنظر بديعاً لا يمكن تخيله إلا لو رأيته .. هنا بحنى القلم
رأسه في حجل ويتحى جانباً للكاميرا أو ريشة الفنان ..

مجموعة من أشجار (شوكة الجمل) .. تحيط بكل حصن من
أغصان الشجر مجموعة من أعشاش الطائر النساج - وهو
طائر جميل ينكر بالبيغاء - وكل عش منها يناهز مترين في
القطر .. من وإلى هذه الأعشاش تدخل الطيور بلا توقف ..
مشهد يحبس الأنفاس بحق .. إنه من العلامات المميزة لصحراء
(كالاهاري) ..

حينما يجتمع مع هذا المشهد عند لا بأس به من حبيبي
المشاغب (الميركات) ، تشعر بأنك توشك على الصراخ من
الانبهار ..

(كالاهاري) أقدور الملح ا

الصحراء التي ضعنا فيها ، وهانحن أولاء على حافة النجاة ،
لكننا بعيدون عنها برغم ذلك ..

وقفنا نرمى للمشهد ذاهلين ، ولا شعورياً امتدت لامل (فاسيلي) تعصر أامل (سيموليتا) ... هذه من اللحظات التي تكون فيها الروحان على تردد واحد من ثم يحدث الرنين .. لا أذكر متى تلقينا في المدرسة موضوع (رنانات هلمهتولتز) ، لكن التجربة تبرهن عن نفسها بشدة هنا .. إن صوت أنفاس الخطيبين المتلاحقة أعلى من مجموع صوت أنفاسهما معاً .

نظرت لـ (مارشا) ونظرت لى . نحن مثل عجلز الفرح ، نراقب هذا المشهد لكننا لسنا جزءاً فيه .. هي لا تهتم بى على ما اعتقد ، وأنا متزوج وأخشاها كالجحيم ..

لماذا أخشاها ؟ لا أعرف .. لقد تحول عنقها لطويل النحيل إلى علامة استفهام عملاقة ..

إنها مفيدة .. لا أنكر هذا .. تعرف كل شيء .. لكنى بحاجة إلى تفسير واضح لكل ما مر بها منذ سقطت الطائرة ...

قلت لأقطع اتسجام المتحابين :

ـ « ما هي خططنا يا شباب ؟ »

التفت لى (فاسيلي) وقد عاد إلى وعيه ، وقال :

ـ « لا توجد خطط ... لو كنت تفضل أن نواصل الرحيل إلى الشمال بحثاً عن قوة حدود من (بئسوانا) نكبض علينا ، فلنا نست

متحمساً لهذا .. على الأقل مع (البوشمن) نحن لن نضيع ..
هناك ماء وطعام وماوى وضمان ضد الوحوش .. »

قلت فى غيظ :

- * هل ترى أن نظل هنا حتى تقوم الساعة ؟ سيكون منظرنا
جميلاً وأنت تنقب عن الماء تحت الأرض بأنبوب .. »

نظرنا جميعاً إلى ما وراءنا .. حيث يقف كوخ البوشمن وراء
الأشجار ، والنسوة يصنعن السهام ، بينما الأطفال للصراة يلعبون
ببيض النعام...

حقاً لن نحب حياة البوشمن كثيراً ...

قلت (مارثا) فى جدية وهى تجلس على الرمال :

- « اسمعونى .. لا يمكن أن نحقق شيئاً من دون مخاطرة ..
سوف يكون علينا أن نجرب الحركة نحو الشمال .. اعتقد أننا
أعرف الكثير عن (كالاهاى) .. ليس كهؤلاء لكن بما يكفى كي
نظل أحياء إلى أن نقابل وحدات الجيش البتسوانى أو نجدنا طريق
بحث ما .. ما رأيكم ؟ »

تبلمت و(فلسبلى) فنظرات .. هذا هو الاختبار الصعب حقاً ...

كيف أعاربت وهذا لى فلسك ؟ هل هذا كمين من نوع ما ؟

لم يكن من الممكن أن نطلب منها الانتحار حتى نتناقش نحن الثلاثة في شأنها ؛ لذا تحدث لنا و(فلسيلي) جانباً .. وعلى الفور صاح :

- « بحق الشيطان ! إنها تعبت بنا ! »

قلت له :

- « لا داعي لطريقة (بحق الشيطان) لروسية هذه ؛ لأن رحلتنا لا تحتاج إلى المزيد من النقص .. ما أراه أنا هو أنك راهم .. ربما كانت تقدم لنا الحل الوحيد الصحيح .. »

- « وماذا قرأه أنت ؟ »

- « نجرب نصف يوم مع إبقاء عيوننا مفتوحة عليها .. لن نقدر على إبقاء ثلاثة .. »

هز رأسه وراح يمدح بالسبب لروسي .. عندما يتكلم الشخص بعبارات متلاحقة ووجهه محمر وبصوت خفيض ، فهو لا يشد إحدى قصائد (بوشكين) .. إنه يسب على الأرجح ..

قلت لها لما عدنا :

- « ليكن .. ستتحرك .. وأرى أن يتم ذلك الآن .. »

- « للشمس قاسية .. ربما لو تنظرنا للغروب .. »

قالت لى (مارثا) : إلهم

فقاطعتها قهقراً :

- « نعم .. نعم .. يسمح لنا لكنه يحزننا من الكبتن (سميث) ..
كل هذا مفهوم .. لكن هل يزودنا بماء وطعام ؟ »

- « بل يعطينا رمحاً ومدية كذلك .. »

- « والمقابل ؟ »

أشارت إلى نظارتى ، وقالت ضاحكة :

- « يعتقد أنها تجعل رؤية القمص أفضل .. »

أنا أتخلى عن عويناتى ؟ مستحيل .. إن الجائع أفضل من
الكفيف على كل حال .. منذ المدرسة الثانوية وأنا أرى العالم من
وراء زجاج النافذة ولا أتصور أن أراه مباشرة ..

هنا نزع (فاسيلي) عويناته ، وقال :

- « أعتقد أن حالة بصرى الفضل منك .. سرف أتخلى عنها .. »

تناول الهوشمن العوينات ونظر لها فى احترام ، ثم أصدر أوامره
للنساء كي يحضرن لنا القليل مما يمكن .. فى هذا المجتمع تعامل
النساء مثل الرجال على الأرجح .. رأى لن يروق لأى من جمعيات
حقوق المرأة .. لهداية = معلمة لنساء كاتهن لند .. التحضر =
المرأة تعنى بالبيت والأطفال فقط ..

لكن ضرورات الحياة - كما في أي مجتمع من (الصيادين /
 الجامعين) - تحتم أن يكون دور كل من الجنسين مختلفاً بصراحة ..
 لابد ممن يصطاد وممن يعدّ اللحم .. لابد ممن يقتل ومن يعد
 اللحم ..

هكذا حملنا ليس ما نستطيع حمله بل ما استطاع هؤلاء
 البؤساء التخلي عنه .. عرض أن يعطينا فخذاً من التيتل ، لكن
 من دون طهي لا قيمة لشيء كهذا ..

سنجرب لمدة نصف يوم ثم نعود إذا قدرنا على العودة ...
 وانطلقنا في رحلتنا نحو الشمال ..

3- المكان الخطأ ..

تمشى (مارثا) فى نشاط وخفة تتقدمنا ..

أسمعها تكتن بصوت خافت عذب .. لا أعرف ما تقول ، فأقترب
ولأنتظر حتى تنهى غناءها ثم أسألها عن معنى هذا .. فتقول :

- « هى أغنية من أغنى البوشمن .. تقول : يوم نموت سيمحو
النسيم الرقيق آثار أقدامنا على الرمال .. بعدما يلنى النسيم ، ترى
من يخبر الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة فى فجر الزمان ؟ »

شعرت برهبة ، وسألتها :

- « هل البوشمن يملكون هذا الحسن المرفف ؟ هذه الأفكار
عميقة جداً بالنسبة لهؤلاء البدائيين .. »

قالت وهى ترطب خديها بمنديل مبتل :

- « كل حضارة لها عالمها الخاص .. ولا يمكن أن تتعرف هذا
العالم من دون أن توغل فيه .. أما لو تعاملت معهم كقردة
زيتونية اللون ، لا يمكن أن تفكر فى شئ غير الطعام والشراب ،
فهذا شأنك .. »

رواصنا للمشى من جديد ..

ستا كالافريزلا موريري مي فا ..

كالتكا .. كالتكا .. كالتكا

يا عزيز عيني واتا بدى أروح بدى ..

تري من يخبر الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة في فجر الزمان ؟

كالتكا .. كالتكا .. كالتكا

بلدى يا بلدى .. و السلطة أخذت ولدى

موريري مي فا ..

يا كالتكا عيني .. واتا نلسى أروح مي فا ..

ستا كالافريزلا أخذت ولدى .. من يخبر الأبدية ؟

جاء الليل ..

من جديد جئت في الظلام في تلك المصكر الذي صنعاه في ربح

ساعة .. كفت هناك بقعة عالية نوعاً اقرب لهضبة رمالية .. هناك

وهنا من قنور المنح تحيط بها .. هناك عشب كثيف ، لكن لا أشجار

تحجب الرؤية .. لبقعة العالية تتيج لك رؤية أى شخص يتحرك
عن بعد .. هذا ما قالت له (مارثا) الخبيرة بهذه الأمور ..

لَمَّا بِاشْعَل النَّار .. هذه للمرة كنا متأهبين .. إن البوشمن
لديهم علب ثقاب غالبًا مسروقة .. ليس الأمر سهلاً جداً برغم
هذا ، لأنك لابد أن تجد أغصاناً جافة وتحافظ على الوهج إلى أن
تسترد النار عافيتها ..

قلت لسيمونيتا الجالسة جولى :

- « لن أذهش لو قلت لى إن البوشمن يستعملون صبار
(الفلوجستين) الذى يحوى كمية هائلة من البنزين والكبروسين ..
يكفى أن تضرب ورقة للصبار فى الأرض لتشتعل وتمتدحك الضوء
والدفء ليلة كاملة .. »

ابتسمت فى حزن .. اهتماماً بدت كأنها تشقى تجاعيد وجهها
الذى تصلبت من الضممن ، وقالت :

- « لن أذهش لنا أيضاً .. لكنى أسمع هذا الكلام الفلرغ للمرة
الأولى .. »

- « وأنا كذلك .. »

النار تتوهج وحولها للتقى .. غرباء لكننا متقاربون جدًا ..
لقد جعلتنا المحنة متعارفين منذ قرون ..

قلت لـ (مارثا) وأنا أشير إلى مساحة صحراوية خالية :
- « في مثل هذه البقعة رأينا ذلك الشبح يجر ما نعتقد أنه
للطيور .. »

هزت رأسها ولم تعلق ..

بعد قليل بدأت الأجهان تثقل .. أنا لا أجد أثرًا للتوم في عيني
لذا ساكون أول الساهرين .. معي الرمح والمدية .. هكذا تتأثرت
ثلاثة أجساد مرهقة من حولي ، وتعالى شخير (سيمونيتا) ..
لو كان معي جهاز تسجيل لأدهش الروسى عندما يسمع شخير
حبيبته الرقيقة في الصباح ..

كان شخيرها مزعجاً فعلاً لذا ركلت طرف حذائها بقدمي ،
فتقلبت لتنام على جنبها وانقطع الشخير ..

رحمت أرمق النار ..

لا أعتقد أن معاناتنا ستطول .. منذ يومين كنت على استعداد
أن أقسم لك أننا قد انتهينا .. الآن أعتقد جدًّا أننا سننجو .. فقط

فليجدنا ذلك الأحق الذي يفتش بطائرته أو هؤلاء المخابيل الذين يقطعون (كالاهاري) الآن بحثاً عن متسللين ..

أشعر بالنعاس يتسلل لي .. طيلة حياتي لا أقاوم هذا الشعور .. الإحساس بأن وجهي دافئ وظهري بارد .. ظهري الخيز في الشتاء في تلك القرن في (شبرا) .. ألق أمام القرن المنكبد واللهب يكوى وجهي ، بينما البرد الفارس خلف ظهري .. صوت ناعس لأم في مكان ما من الطهور تحكي لاهنتها قصة الشاطر حسن .. الصوت يتسرب لأعصابي .. الصوت والدفء ينوماني .. إنني ..

ثم رفعت رأسي مذعوراً كأنه كان مسقط في هوية بلا قرار ..

(فاسولي) ينام كالقتيل على بعد خطوات ..

غريب أمر الظلال في هذه الرقعة .. أكاد أقسم أن هذا للظل الأسود الصغير يتحرك .. يتحرك جوار كفه المبرودة ..

لكن .. ليس هذا ظلاً .. ليس ظلاً على الإطلاق ..

مشيت في وضع القرفصاء كما يفعل رجل البوشمن .. لأدنى البصر أكثر ..

نعم . لا شك في هذا ..

هذا عكرب .. عكرب يزحف وهو يرفع زبته متأهبا ..

لا اعتقد أننى سأتحمل هذا الشعور الكريه ، لكن لا وقت
للهستيريا .. هكذا رلعت حذائى وهويت به على الكائن البضع ..
سكوبمش ! كنت أخشى هذا الصوت ! تمنيت لو صدر منه صوت
(كراش) ..

ركلت الرمال لأبعد ..

ثم عدت لموضع السابق ..

هنا ألقيت نظرة على (سيمونيتا) التى نامت على جنبها
وكانت قد نزعَت حذاءها طلبا للاسترخاء .. رأيت ظلأ أسود
يزحف جوار قدمها للعارية !

هل هذا مزاح ؟

ركضت حتى بلغت موضع العكرب قدسته بشراصة وعنف
وركلت الرمال .. ثم دسّت عليها لأدفنه .. وحانت حنى نظرة إلى
(مارثا) ..

لماذا أنت متيقظة يا (مارثا) ؟ لماذا أنت جالسة تنظرين لى

لى ثبات ؟

ثمة ظل أسود يزحف جوار وجه (فاسيلي) .. هنا فقدت تماسكي تصرخت في جنون :

« انهضوااااااا ! »

ثم ركضت لأركل هذا العقرب .. ونهض (فاسيلي) مذعوراً ونهضت (سيمونييتا) .. كان هذا هو الوقت المناسب بالفعل لأن الرمال كانت تبعج بتلك الكائنات .. كلها شريرة المنظر متعصبة لوجهة نظرها ، تتخذ وضعاً قتالياً ممتازاً ...

— « انهضوااااااا ! لقد اتخطنا معسكرنا في وسط مستعمرة عقارب ! »

★ ★ ★

4- الزمان الخطأ ..

الآن يمكنك بلا عناء أن تتصور الفوضى التي حلت بهذه
البيعة الهائلة من (كالا هارى) ..

صراخ .. وثب لى الهواء .. ركض على الرمال .. كنت
(سيمونينا) حافية وهذا لم يجعل الوضع أفضل .. العنارب كانت
هناك .. كنت فى كل مكان ..

تخرج من بين الرمال حيث كنت تنهز من شمس النهار ،
وتقبل تحونا ..

« هناك نوعان من العنارب .. نوع مسلم كهذا وتنوع الآخر
نو لنيل الرفع غير مسلم .. أنا لم أكن لنوع لثنى فى حيتى قط !! »
كذا قالت لى (مارثا) عندما كانت صديقتى ..

الآن هى تجثو على ركبتيها وتمد يدها نحو تلك الأشباح ..
الآن هى تلف صالحة :

« لا داعى للحركات العنيفة ! إنها لا تلدغ إلا من
يوثرها ! »

قولى هذا لسواى .. لقد كان (فاسيلى) نائمًا وبرغم هذا أخذ
العقرب وضفًا هجومًا ممتازًا بحبسه عليه أى مدرب
(تايكوندى) فى العالم .. العقارب تلدغ النيام .. من لم يسمع عن
قصة مماثلة ؟

الخلاصة أننا جمعنا حاجياتنا فى هستيريا ورحنا نتوالب
مبتعدين .. فلفظ بعد ما ابتعدنا مسافة كافية سمعنا (مارثا) تلحق
بنا ..

النار هى الشيء الوحيد الباقى الذى يقول أننا كنا ها هنا ..
بعد ما يطفى النسيم ، ترى من يخبر الأبدية أننا عشنا ها هنا مرة
فى فجر الزمان ؟

قلت لـ (مارثا) ولما أركض كالقنق موائها بين الرمال .. أى
ظل أعتبره عقربًا واتحاشاه :

- « كيف اخترت لنا هذا المكان بالذات ؟ المفترض أن أخبرتك
بالعقارب علمتك الكثير .. »

- « ومنذ متى تتخذ العقارب الهضاب مسكنًا لها ؟ »

كان الحلم لا يفارق مخيلتى ..

العقارب .. العقارب فى كل مكان ..

كلها تطلق صوتاً هو مزيج من فحيح واحتكاك .. تتحرك ..
تتكاثر .. تغمر الوديان .. وعلينا أن نجتاز هذا السهل ..

الهرب ! لا سبيل للهرب لأن الرمال تعوق الفرار .. العقارب ..
سوف تلتف حولك .. وتتسلق ساقك .. سوف تحاول أن تتخلص
من بعضها بلا جدوى .. سوف تسحق اثنين فيتسلق سراويلك
ثلاثة .. عندها لن تشعر سوى بالندشة .. لا غلت .. ملك منها ..

لكن (مارثا) تظهر فى الأفق .. سوف نتقنا ..

إنها تلبس ثياباً غريبة تذكرك بالكاهنات الوثنيات .. على
صدرها مئات العقارب تتراحم لكنها لا تؤذيها ، وهى تحمل عصا
غريبة الشكل ..

- « نعم يا فتية .. أنا هى ملكة العقارب ! كن عليكم أن
توقعوا ذلك ! »

تنفجر فى الضحك .. وأنت تغوص بلا انقطاع فى الأرض ...
كنا نركض ونتعثر .. لكننا نبتعد بلا توقف ..

كنا واقفين الآن نرمى تلك النهر الذى يلتصق ماؤه فى ضوء
النجوم .. نهر فى (كالاهارى) ! هذه أغرب صحراء سمعت

عنها في هياتي .. لهذا فضل العلماء ألا يطلقوا على
(كالا هري) اسم (صحراء) بل يسمونها (سافانا جافة) ..

قالت (مارثا) همنا كثيها تخشى أن تصحو الطبيعة من
خلوتها :

- « نهر (تشوبى) الصالح .. نحن في (بتسوتا) فعلاً ..
ينبع في مرتفعات (أنجولا) ويمر عبر كثبان الرمل ويكبر بينما
يتدفق شرقاً نحو أرويه نهر (زامبيزي) .. »

ليس هذا هو المهم .. المهم هي تلك الصائقة السود التى تتجه
في تودة نحو النهر .. أهيا ! أنا الذى كنت أحسب لا وجود
لليلة هنا ..

نحن نراها بوضوح برغم الظلام ويرغم أننا على بعد مائتى
متر من موضعها ..

أخبرتنا (مارثا) أن النهر يستقبل نحو خمسة عشر ألف فيل ..
تتوجه القطعان الصغيرة إلى ضفتى النهر يومياً لتروى ظمأها ..
أقرب مصدر للمياه بعد ثمانين كيلومتراً عن هذا النهر المتدفق ،
وهى مسافة يصعب على الفيلة الصغيرة أن تقطعها خصوصاً في
الموسم الجاف .

« الفيلة الصغيرة لا يمكنها امتصاص خراطيمها لشرب الماء ،
 فيوجد أكثر من ألف عضلة في الخرطوم الصغير ، يحتاج الفيل
 الصغير إلى الوقت ليتعلم السيطرة على خرطومه واستعمالاته
 المتعددة .. »

أما عن الحياة البرية فلا تسلم !

إن هذا النهر مصدر رزق لا ينتهى للمصورين و(ناشيونال
 جيوغرافيكس) وقناة (ديسكافري) ..

لنسر الأتريقى صيد معروف فى هذه المياه ، وتترصد العنكب من
 هذه النصور فريستها على ضفتى النهر . وتجتذب آلاف
 الجواميس إلى النهر لتروى ظمأها من مائه .. تطير أسراب طيور
 القنار قتي تتميز بمنقارها الأحمر إما برفقة القطيع وإما تحط على
 ظهور الجواميس . وهى تتغذى من حشرات القرد قتي تحملها
 الجواميس ، أو من اللحم المتدفق من الجراح أو للقروح على
 جملدها .

وملذا عن تلك للعائلة التى تزحف نحو النهر أو تخرج منه ؟

إنها لا تبدو كالأفيال ..

هذه الصائفة هي الفرس للنهر .. وهي كانت معلقة ما دامت في الماء ، لكنها على البر تتحول إلى كانت مربعة كسطح قلام الصافات .. هذه كانت شديدة الحرص على منطقتها *border* .. بها تضع علامات على منطقتها بالطريقة المضادة للوهوش بالبرق .. من يخترق هذه الحدود انتهى أمره على الأرجح ..

تفرز غدد فرس النهر الجلدية سقلا قرنفلي اللون لحماية جلدها الحساس الذي يتأثر بسهولة بسبب أشعة الشمس . لذا كان المستكشفون الأوائل يفتنون أن فرس النهر يعزل دما .

كان المشهد مهيئاً وشعرت بالتشعيرية تزحف على عمودي الفخري ..

سبحان الله ..

هذه من المشاهد التي تخفيها أفريقيا المجهول عن عينيك .. فقط في قلبى المقمرة حينما لا يراها أحد تتجه إلى النهر لتكشف عن صنها الحقيقي للفريد .. ومن أجل مشاهد هذه أدرك أنني لم أخطئ للمبطل عندما تركت كل شيء وجات هنا .. إن للمرء حياة واحدة ، فمتى يرى مشهداً كهذا ؟

لأبد أنها كانت الساعة الثالثة صباحاً عندما رأينا الضوء ..

توقفنا وتبادلنا النظرات ..

بالفعل كنا نقف أمام مدق من منخات الصحراء .. شبه طريق
ممهّد يتلوى مبتعداً واعدّاً بالأمل ..

على مسافة مائة متر نرى تلك للسيارة .. سيارة (لاندروفر)
قائمة نحونا ..

تبادلنا النظرات .. هذه هي .. لقد نجونا ..

ضوء السيارة ساطع للغاية .. يحدث الكثير من الأعيب الضوء
في عيوننا المرهقة .. ثم توقفت أمامنا .. إنها حكومية .. يمكن
القول بلا خطأ كبير إنها تخص حرس الحدود في بتسواتنا ..

رحنا نتواشَب ونتكَلَل .. علموا يا حمقى نحن هنا !

أخيراً توقفت السيارة ورأينا أن لديها أربعة جنود سود ..
جلدهم يلمع كأنه مدهون بالزيت في انعكاس كشافات السيارة ..
منحجّين بالسلاح .. كانوا ينظرون لنا بعيون متوسعة متوترة ..

قال (فاسيلي) بالفرنسية ضاحكاً :

- « نحن ضائعون في الصحراء .. لقد سقطت طائرتنا في موضع من (كالاهاري) .. لقد أطفأنا البوشمن .. »

لم يتكلم لرجال .. فقط تبخلوا فنظرت وبدا لي هذا غير مريح ..
قالت (سيمونيتا) بدورها :

- « نحن من وحدة (سالماري) لطبية قرب (بربان) .. بمكنكم التأكد من هذا .. لابد أن يقاتلنا عنكم .. »

هنا قال أكبرهم وأضخمهم وهو يترجل :

- « لا نهتم بهذه القصص .. أنتم متسللون للحدود .. »

فرنسية رديئة جداً .. خاصة عندما تصدر من هذه الحجرة القليقة ..

هذا معروف .. نحن متسللون .. توقفنا هذا .. سوف تحدث مشكلة قانونية نستمع بضعة أيام ثم ينتهي كل شيء ..

قال (فلسيلي) في مرج :

- « ليكن .. غنونا إلى قبائلكم .. إن السيرة تمد .. »

هنا انطلقت الركلة .. حذاء الضابط الأفريقي الثقيل استقر في
معدة (السنلى) فطار مترين للخلف .. صحت في عصبية :

« أنت تبلى ! قلت لك إنه يمكنك الت .. »

لكن دهشك البندقي كان ثقيلاً فعلاً .. لقد هوى على مؤخرة
رأسى .. سقطت على الأرض ولما شعر كُننى أصبت بارتجاج ..
لو لم تكن هذه الضربة قد أصابتنى بارتجاج فارتجاج للمخ
لا وجود له ، ويجب حذفه من المراجع الطبية ..

لحقت (سيمونيتا) فمها بدورها فتلت صقعة بكف غليظة ..
وقف تلك الضابط أو الأمر في وسط المجموعة ، ولمس يديه
في حزامه ، وقال :

« لدينا أوامر بإطلاق الرصاص فوراً على المتمثلين .. »

ثم أمتع أسنقه البيض في فخر ، وقال :

« سيتم إعدامكم هنا والآن ! »

لا يمكن أن يكون خطأ .. ليس إعدامنا من مصلحة أى طرف ،
دعك من أنه سبب مشاكل دبلوماسية مرعبة لو كشف الأمر ..
صحيح أنه فكر على أن يبقنا في الصحراء حيث لن نعرف

(الأنبياء) أنا مشينا هاهنا مرة في فجر الزمان (لكن يهل هذا
للحلم غير مفهوم ..

هناك أسباب تجعلني لا أشعر بحب شديد لـ (بتسوقا) التي
لا أعرف عنها أي شيء ..

هؤلاء ليسوا جنوداً .. إنهم أوغاد .. ربما هم جنود فاروق أو
مرتزقة أو شيء من هذا القبيل .. لكن لماذا قتلنا ؟ نحن لا نملك
ما يُسرق سوى بعض بيض النعام ..

هنا قُهِمَت الأُمر عندما قُتِلَ وقد ارتُسمت ضحكة الرخام على
وجهه :

« سنعدم الرجلين ونبقي الفتتين للاستجواب ! »

5- الشخص الخطأ ..

قال الرجل الذى يبدو أنه قائدهم وهو يشير لواحد منهم ..
 قال ؟ بالواقع لم أفهم ما قال لأنه كان يكلمه بلغة وطنية ما ، لكن
 الإمامات سهلة التفسير .. أنت يا فلان .. تول أمر الرجلين ..
 هكذا وثب أحدهم من السيارة وأخرج مسدسًا من حزامه .. أعرف
 طابع الخطورة الصبغياتى هذا الذى يميز الأفارقة للمسلحين ..
 إنهم يتصرفون بالضبط مثل الصبغى الذى يحمل لعبة مسدس ..
 غرور للقوة والتظاهر بالأهمية .. لهذا لا تكاد القارة البائسة
 تشفى من الحروب الأهلية واشتباك ميليشيات الجنرال فلان مع
 ميليشيات الجنرال علان ..

أشار لنا بالمسدس كى نتقدم وراء تلة صغيرة من الرمال ..
 ودارت السيارة حول عجلاتها الأمامية كى تسقط كشافتها على
 الموضوع المختار ..

« منعدم لرجلين ونبقى لفتاتين للاستجواب .. » هذا ما يجب
 أن يقوله .. لكن الشطر الثانى هو الهدف طبعًا وهو سبب قتلنا ..

كنا بعد لا نصدق أننا سلمت هنا والآن .. سوف تكون
 أسداف ممتة يمكن وصلها ، نحن الذين حسبنا أننا افكرنا من

الأمل . دعك من لئلى لا أطبق فكرة أن أموت وأترك الفتاتين مع هؤلاء الأوغاد ..

ما زلت أشعر أن حياتى سيمفونية لم تكتمل من سيمفونيات الأخ (ليست) .. على الصعيد الدينى أو العلمى أو الثقافى أو العاطفى لم أبلغ ربع ما أردت بعد ، ومن الخسارة الفادحة أن أموت الآن .. فجأة سمعت للضحكة الكثوية .. ضحكة رفيعة منبئة بالذلّال ..

استنرت لأرى ما هناك ، فوجدت فى الظلام (مارثا) فى المسيرة مع الجنود فعلاً .. ثم ألهم حرفاً مما تقول لكنهم كانوا مسرورين .. كانت تعبت فى جيوب ستراتهم العسكرية كأنها طفلة منبهرة برؤية شرطى .. تمد يدها لتعبت بياقة هذا أو ذاك ..

لو كانت ساحرة حقاً ، فقد قررت أن أستقل سحرها .. إن الجنود يبدون كالأطفال فى بدها .. لابد أنها تبدى إعجابها بقوتهم ووساماتهم على طريقة الأطفال .. باى .. هذا مهندس ؟ كيف تحمله ولا تخلف ؟ كيف يعمل ؟ ما نفع هذا الخنجر ؟ باى .. جاك جداً .. أنتم شجعان حقاً إذ تحملون أشياء مرعبة كهذه ..

(سيمفونيّاً) تقف تراقب هذا كنه غير مصدقة .. لسان حالها يقول : أينها الحرياء المخادعة !

على كل حال لن يؤثر هذا فى مصيرنا كثيراً .. لن يؤثر فى مصير (مارثا) أيضاً ..

أشار لنا الجندي في احترامه كي نخرج من الأمر .. فجاء
عظيم فعلاً أن يقتل طبيين أعزّين ..

للغلام وضوء الكشافات ..

سيتم هذا بسرعة .. لا تقلق يا (علام) .. في لحظة أنت هنا
تعي كل شيء ، ولجاء أنت هناك تترك الحديقة وتفتح مغليق
الطاسم الكوني .. ترى هل ساري حتى من أعلى كما تتخيل
السيما ؟

تولينا وراء الهضبة فلم نعد نرى السيارة .. الجندي يشعل نفاثة
تبع ليدور محترفاً .. ثم يعالج المصدس .. تشيك .. تشاك ..

نظرت إلى (فاسيلي) ونظر لي ..

لقد مررنا بالكثير ، لكن هناك مرة أخيرة دائماً ..

مممناً للطلقة لكنها كانت بعيدة جداً ..

مستحيل أن تكون طلقة معدن هذا الجندي ..

هنا بدأ الأمر كله كابوس .. لقد ظهرت (سيمونيتا) وهي تحمل
بندقية آلية .. كان الخرق واضحاً من طريقة حملها كأنها تحمل
مكتمة ثقيلة ، لكنها كانت تصوبها نحو الجندي ، وكانت في حال
لا تصدق من الشراسة والهباج ..

صرخت فينا :

« ليتعدا !! »

وضفت على الزناد لتتطاير عشرات الطلقات حول الرجل المذهول وفي الرمال .. لا تستطيع التحكم نهائيا في اتجاه القوهة ، ورد الفعل بطيرها في كل اتجاه كأنها بالون يتسرب منه الهواء . لكن فتور الكثرة يصلح على كل حال .. من بين عشرات الطلقات هناك طلقة واحدة على الأكل أصابت الجندي في مقتل .. سقط على الأرض والحافة التبغ لم تغرق شفتيه ..

هنا فقط لفت بالبندقية على الأرض وراحت تبكي .. لرمت بين نراعى (المصلى) وعجزت عن الكلام نهائيا ..

سألتها في رعب :

« الآخرون ؟ »

لم ترد ..

هرعت إلى حيث كنا منذ دقائق لرأيت المنظر كله واحة هدوء ..

رأيت الجنود الباقين في السيارة ينظرون في نوم عميق ، وإن لتوت وجوههم في كقعة مرعبة .. وكأن أحدهم بطل بجذعه خارج السيارة والمسدس في يده .. للمسند الذي سمعنا صوت طلقاته ..

نبوت أكثر .. رأيت العقارب تزحف على واحدة من للجثث ..
ثمة عقرب نسته (مارثا) فى باقة للرجل فلم يضع وقتاً ..

(مارثا) التى تظاهرت بأنها منبهة بسحر الجنود نست لكل
منهم عقرباً فى لقاء أو جيبه .. كنت تحمل بضعة عقارب
انتشلتها من المكان الذى يتنا فيه .. لا بد أنها وضعتها فى قشرة
بعض نعمة لأننى أراها مهشمة على الأرض جوار السيارة ..
أراها بعين الخيال تلف ذراعها حول عنق الجندى ثم باصبعين
طويلين دقيقين - تدرباً أعواماً على فن الإمساك بالعقارب - ترفع
العقرب فى الظلام لتدسه بين ثياب الرجل ولحمه .. الجندى
يضحك ويقهقه .. بينما تتركه لتداعب زميله .. لا بد أنهم لم
يفهموا إلا عندما شعر الثقل باللدغة .. كان هذا هو الوقت الذى
اختلفت فيه (سيمونيتا) البندقية وهرعت لتجنبنا ..

لم أسمع من قبل عن سم عقرب يقتل فى ثوان .. ترى ما نوع
هذه العقارب ؟

على أن الموت خلال ثوان يختلف عن الموت فوراً .. أحد
الجنود أخرج مسدسه وبيد راجلة صوب على (مارثا) وأطلق
الرصاص ، قبل أن يغيب فى وادى الظلام ..

هناك كانت رائحة على الرمال وندم ينبثق من كتفها بلا توقف ..
ركعت جوارها .. الرمال الحمر تتشرب الدم الأحمر فى نهم ..

كان أول ما فكرت في قوله سخيلاً للغاية :

- « لماذا احتفظت بالعقارب ؟ »

قالت بصوت كالفحيح :

- « لم تكن مسلحين .. كنت .. كنت .. أعرف أن هذا سلاح ..
سلاح قوى .. جداً .. »

كانت عينهاها تغريان ..

ما معنى هذا ؟ لا أرى إصابة إلا في كتفها .. هل هي تفعل
ذلك بحكم العادة ؟ هل يروى لها مشهد الموت على الرمال بين
أصدقاء باكين ؟

قلت لها في غيظ :

- « لماذا قررت أن تموتى ؟ لا أحد يموت بجرح في كتفه .. »

قالت وشبح اهتمام بتلاعب على شفيتها :

- « تلقيت عدة لدغات .. لا يمكن أن تمسك بعقرب في الظلام
وسط أربعة عقارب أخرى وتتجو .. فقط .. طال الأمر معى
لأننى .. »

(لأننى اعتدت لدغات العقارب) .. هذا ما أرادت قوله .. لابد
أن نسبة الأجسام المضادة فى دمها عالية جداً ..

بعد ما باليت شفتيها .. قالت شيئا هامسا لي أنني .. لن أقوله
من فضلكم .. اسمحوا لي بهذا ...

ثم شخصت عيناها وكنت عن ممارسة ما يمارسه الأحياء ..

هنا سال الدمع حاراً من عيني ..

وسمعت عويل (سيمونيّا) من وراء ظهري ..

لقد أنقذتنا الفتاة .. أنقذتنا الفتاتان في الواقع ..

أعتقد أننا عندما اتهمنا (مارثا) اتهمنا الشخص للخطأ ..

لكن (مارثا) ماتت قبل أن تعطى تفسيرات كافية لكل شيء ..
باسلة شجاعة سريعة البديهة .. لكنها غامضة كذلك ..

يوم نموت سمحو للنسيم الرقيق أنثر أقدامنا على الرمال ..
بعدها يفتنى النسيم ، ترى من يخبر الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة
في فجر الزمان ؟

6- ذكريات وطلقات ..

سمع (جورج ماوريكي) عمل الاتصالات الأقربى صوت محركت الطائرة وهى تتطلق مع ضوء الفجر .. هز كتفيه فى عدم فهم وغمغم :

- « يا للحمير ! »

إنه (فان ثورن) المجنون . الهولندى الأحمق - على وزن (الهولندى الطائر) - ينطلق للمرة العاشرة على الأقل ليمسح صحراء (كالاهارى) فى موضع قرب (بتسواتا) .. بالذات منطقة نور الملح فى (تشبونج) ..

لقد صار هذا الروتين معتاداً .. سوف يحلق (فان ثورن) فوق المنطقة عدة مرات ، ثم يعود وهو يعضغ السيجار .. يطلب الإخطار ويطلق السباب الهولندى الذىء جداً .. ولم يمنع (جورج) نفسه قط من الاعتقاد بأن الغباء يرتبط بالإصرار والمثابرة .. فقط الأنكباء يعرفون عدم جدوى الشيء من أول مرة .. ما الذى تلمحه سلحفاة الصحراء عندما تنطح الصخرة يومين متواصلين دون أن تلمح لحظة واحدة فى أن تدور حولها ؟ هذا هو الإصرار والمثابرة كما تفهمهما ..

أما (فان ثورن) فكان يركب طائرته .. الحقيقة أن (فونلي)
الطيار كان صديقاً عزيزاً ، لكنه كذلك جرب ذات مرة السقوط
بالطائرة في (كالا هاري) .. يذكر جيداً ذعره وتخطئه واختلاط
الاتجاهات .. يذكر الساعات السوداء التي مضت عليه إلى أن وجد
نقطة شرطة هولندية ..

لن ينسى تلك اللحظات ، لذا قرر أنه ما دام هناك أحياء فهو
لن يتركهم .. لن يترك أحداً يمر بتلك التجربة القاسية ..

منطقة قدور الملح في (تشابونج) ..

الأغبياء لم يجدوا مكاناً أفضل ..

كان يقود الطائرة وهو يسترجع كلمات (هنريك فان راين)
المكبر المعجوز ..

في تلك الليلة جلسوا حول (هنريك فان راين) الذي لم يعد
يصلح لشيء سوى الموت .. لا توجد في أمه سن واحدة
سليمة ، وقد تلف كبده من الكحول من زمن ..

يومها قال لهم (فان راين) :

« لا ينبغي أحدكم من قدور الملح .. (تشابونج) .. أؤكد
لكم ذلك .. لما كنت هناك .. آخر مرة أطيروا فيها في حياتي اللعينة ..
كنت هناك ورأيتهم في ضوء الشمس .. هياكل هؤلاء للبوشمن ..

عشرة هياكل عظمية ملقاة جنباً إلى جنب حتى تجلفها الشمس ..
 فلا تخفى إن كنت أكنب .. لقد أصابني الذعر .. تكلمت (سكوتى سميت)
 على الفور .. لمى كتفت تحكى لنا قصته .. مزرعته (ليتلاندشيان)
 فى (ويندلى) .. كنا نصحبها تطلق الشعلات .. لنتم تعرفون كم يكره
 الهولنديون الإنجليز .. (سكوتى) أمكتلندى ؟ لا بهم .. بالنسبة
 لنا لا نعرف الفارق بين إيرلندى وسكوتلندى وبريطانى .. كلهم
 ملاعين وكلهم ينافسوننا .. »

ثم وضع يده جوار فمه كلما يكتم صوت الهمس :

- « إنه مدفون هنا فى (أنجتون) .. هل علمتم ذلك ؟ أنا ذهبت
 إلى هناك .. هل تعرفون ما رأيته ؟ لقد نبش قبره III (سكوتى)
 فعجز لم يعد نكماً فى قبره .. إنه هناك وسط (كالاهلى) بوسط
 البروشمن .. أنا أعرف ذلك .. كل البروشمن يعرفون ذلك .. »

برغمه وجد (فان ثورن) نفسه يردد مقاطع كلمة من المحادثة ،
 ويضحك مع كلمات العجوز ..

لقد مات (فان راين) .. مات بعد هذه الجلسة بشهر واحد ..
 كان يحتسى الخمر فى المئصف ثم سقط رأسه على المنضدة
 ومات ..

عندما يموت المرء بعد ما يقول كلمة ما فإنها تبقى فى ذاكرة
الناس أكثر وقت ممكن ، ولقد ظلت كلمات الرجل تتردد فى ذهن
(فان ثورن) ..

إنه الآن يحلق فى ضوء الفجر للقرمزي نحو الشمال .. من
ناحية اليسار ظلام دامس أولى .. ثم يتدرج إلى اللون الكحلى
للقرمزي .. أما عن يمينه فيرى الشمس كخط أحمر دموي
يتسلل إلى الأفق ، بالطريقة التى نتراف بها الدم تحت الماء ..
وكأن الطائرة سمكة قرش شمت رائحة الدم فجاءت مسرعة ..
إن السماء ملكه .. لا أحد يحلق هنا سواه .. فربما كلها ملكه ..
يشعر بالنشوة تملكه ..

يرفع رأسه للسماء ويصرخ .. يصرخ ...

ينور مرتين ثم يخلص أكثر ليرى تلال (كالاهارى) التى
ما زالت داكنة اللون لم يتضح لونها الأحمر بعد ..
فجأة يرى شيئاً يتحرك وسط الكثبان .. بين قنور المنح ..
هناك مجموعة من أشجار (شجرة الجمل) وهذا الشيء يزحف
بينها ..

يحاول التدقيق أكثر لكن الظلام لا يسمح بشيء ..

هل هم هنا ؟ هل هو محارب يوشم ؟

ربما كان هذا (سكوتى سميت) ؟ وضحك في سره للفكرة ..
لا يمكنه للتأكد ولا يمكنه للهبوط ..

على كل حال ليست مهمته البحث عن كل شيء .. مهمته محددة
هى العثور على الناجين الخمسة .. لا يمكن القول إن هذا الشبح
منهم ..

هكذا ارتفع بالطلقة ..

هذه صوت للطلقة التى ارتجت لها الصحراء ..

لم يفهم فى البداية وحسب أنه خلل فى المحرك ، لكن الطلقة
الثانية اضطدمت بقمرة القفيدة .. إنه يطلق الرصاص ! هذا
المخبول يطلق الرصاص !

ارتفع بالطلقة بسرعة البرق ودور دورة كاملة بحيث صارت
الشمس المشرقة عن يمينه ، ثم اندفع عائداً ..

لو أصابت طلقة خزان الوقود فلن تنفجر الطائرة ، لكن من
لوارد أن يجد نفسه ماشياً على قدميه فى (كالاهارى) .. أى
أنه سيشارك مصير هؤلاء الذين خرج لإطلاقهم ..

وشعر بخزى ..

التسرع المحلى العلىء بالزهو ، تحول إلى عصفور مذعور
يطارده الصبية بيناتهم ..

منذ ثولن اعتقد أنه امتلك السماء .. الآن يعرف قدره بالضيبط ..

فى سن المراهقة سرق سيارة أبيه وفلاها بمسوعة جهنمية فى طريق خارج (أمستردام) .. شعر بأنه منك الطرقات .. شعر بأنه يملك القدر ويسيطر على الأكوان .. فجأة اكتشف أن الفرائل تلتفه ! سرعان ما تهاوى منك الأقدار من عليائه ليصير مجرد صبي مذعور يبكى خوفاً .. فقط عندما تذكر ما سمعه من أبيه عن طريقة (النقل العكسى) وعندما رفع قدمه عن دواسة الوقود نهائياً .. عندها بدأ يشعر أنه سيطر على كتلة الحديد المجنونة هذه ..

لكن لماذا أطلق على الرصاص ؟ لماذا ؟

7- البحث عن نحلة ..

« .. إنه هناك وسط (كالا هارى) بصطاد البوشمن .. أنا أعرف ذلك . كل البوشمن يعرفون ذلك .. »

« .. إنه هناك وسط (كالا هارى) بصطاد البوشمن .. أنا أعرف ذلك .. كل البوشمن يعرفون ذلك .. »

صار الأمر خطيراً بحق ..

نحن فعلاً قد انتهكنا حدود (بتسوتا) ومن الواضح أن الأمر لم يمر بسهولة ..

ربما كان هؤلاء الجنود منشقين أو مرتزقة - وأصبحهم كذلك - لكن من الواضح فعلاً أن نقابل دورية تطلق علينا الرصاص .. دعك من أننا فعلاً قُتلنا أربعة من جنودهم .. على الأقل مات أحدهم رمياً بالرصاص .. لا يمكن التظاهر باللفظ والرفق وعدم الفهم ..

كنا واقفين قرب السيارة .. وقد قمنا بدفن (مارثا) كيفما تعلق .. لن ندفن الجنود فهذه مشكلة زملائهم .. سوف تجددهم طائرة

هليوكوبتر بسهولة بمجرد أن تتقطع الاتصالات وهذا يضى أن
علينا ألا نضيع ثانية أخرى ..

صحت فى (سيمونيتا) و(فاسولى) :

- « إلى الجنوب الشرقى ! هكذا يمكن أن نعود إلى أسرة
البوشمن .. نحن نعرف يقيناً أنهم فى جنوب أفريقيا وأنهم لن
يقربوا من حدود (بتمواتا) .. »

قال (فاسولى) :

- « كل هذا جميل .. لكن هل لديك أمل فى أن نعرف اتجاهنا
من دون (مارثا) ومع هذا الظلام ؟ »

قلت وأنا أنظر إلى السماء :

- « المشكلة أن أوضاع النجوم مقلوبة .. كل شىء يتصرف
بشكل خطأ فى نصف الكرة الأرضية الجنوبية هذا .. حتى
البوصلة لا تكذب .. »

قلت (سيمونيتا) باسمه :

- « انظروا هناك ! »

نظرنا حيث أشارت فرلينا خطأً أحمر بجمل الألفى .. كأنه توكيد
خطئه بد كونه على معلم الصحراء .. إنه الحجر .. فقد اقرب ..

.. « هذا هو الشرقى .. يمكننا أن نتجه للجنوب الشرقى بسهولة .. »

عندما تواجه الشرق فإن الجنوب يكون عن يمينك والشمال عن
يسارك والغرب خلفك .. كتاب علوم الصف الرابع الابتدائى ..
على الأقل فى أبهى أنا .. يستحيل أن ينسى المرء شيئاً درسه
قبل من العاشرة .. لهذا أشر أحياناً بأن ما بقى لى فعلاً من كل
هذا للتعليم هو القراءة والكتابة والحسابات البسيطة .. حتى
قصص المسود التى أقرأها فى صلاتى تعلمتها فى تلك السن ..

من دون كلمة أخرى مشينا مسرعين ..

الرمل تحوى الحركة لكن حرارة الجو اقرب إلى البرودة مما
يتيح لنا الحركة بسهولة ..



سنا كالأهريز لا مودى منى أنا ..

كائننا .. كائننا .. كائننا

يا عزيز عبنى وأنا بدى أروح بدى ..

كالتكا .. كالتكا .. كالتكا

بلدى يا بلدى .. و السلطة أخذت ولدى

موريرى مى فا ..

يا كالتكا عرتى .. ولنا نفسى أروح مى فا ..

ستا كالافريزلا أخذت ولدى ..

* * *

خلا غناؤنا من مقطع .. « ترى من يخبر الأبدية أننا مشينا
ها هنا مرة فى فجر الزمان ؟ » .. (مارثا) لم تعد معنا .. لقد
كانت هنا منذ ساعات ثم محا النسيم للرفيق آثار قدميها على
الرمال .. لن تعرف الأبدية أنها كانت هنا ..

كانت رقيقة بلسنة .. وماتت بلدغات العطرب لأنها أرادت أن
تحمينا ..

لماذا يتهاطنون .. ؟

لا وقت للشعب ..

إن طائرات الهليكوبتر سريعة ولا تتعب .. يكفى أن تحلق
واحدة منها فى اتجاهنا ولسوف تراثنا فوق الرمال بسهولة ..

لماذا لا تجئنا طائرات النجدة ؟ لأنها لا تعرف عن أى شيء تبحث ولا فى أى اتجاه .. دعك من أنها سريعة لا تسمح بامعان النظر .. أما طيار الهليكوبتر فيعرف عن أى شيء يبحث وأين ، ولديه كل الوقت يسمح الرمال بعينه .. يمكنه أن يهبط متى أراد ..

الآن يصطبغ الجو باللون الأحمر ..

نرى غابة صغيرة من نباتات شوكية الجمل (أكاسيا جيراها) وشجرة الرعاة البيضاء الجميلة ..

قلت (سيمونيكا) وهى تلهث :

« لا أهوى لتلول ، لكنى أعقد أننا نكترب إن لم تكن فى جنوب أفريقيا فعلاً .. نبات (أكاسيا جيراها) يوجد فى الجنوب أكثر .. »

قلت لها ولما لتهث أكثر منها :

« هذا مطمئن ، لكنى أقترح أن نواصل المشى للمزيد من اليقين .. »

★ ★ ★

عندما ارتفعت الشمس عرفنا أننا بقينا فى (كالاهاى) التى عرفناها ..

للصحراء الحمراء للقاسية .. الحرارة .. للجفاف .. لم تعد
هناك أنهار تستحم فيها القيلة في منتصف الليل .. لم تعد هناك
جنان من نبات شوكة الجميل ..

هذه النقطة تبدو لي مألوفاً كأنني دخلت القيلم في هذا المشهد
بالتأت ..

يبدو أننا عندا لنقطة البداية ..

في المرة الأولى أنقذت نحلة ربط بها الريش .. ترى كم من
الوقت يجب أن تنتظر حتى ترى نحلة أخرى ؟

8- مهمة ليلية ..

نعود الآن بضع ساعات إلى الوراء ..

نعود إلى كوخ (البوشمن) الجديد الذي غادرناه نحن ..

ليس عند (البوشمن) طقوس تنصيب للرجولة .. أنت تعرف أن كل القبائل البدائية لديها طقوس رجولة تطن بها أن الفتى المراهق صار رجلاً .. لكن هذه ليست من عادات البوشمن ..

لهذا كان (نوى) للصغير بحاجة إلى إثبات نفسه ..

كان يقف في الكوخ ويأتى بحركات توحى بالقتال .. ثم يسرق واحدة من حرايب الرجال الكبار ويتظاهر بأنه بصطاد فيلاً .. للخلاصة أنه كان يمارس كل سخافات العصبية عندما ..

عندما رحل الغربيون ، وعندما جاء الليل ، كان عليه أن يبيت في الكوخ مع الأطفال .. (نوى) الكبير يقف في الخارج يراقب الصحراء كما يحدث في كل ليلة ..

هذه هي اللحظة التي شعر فيها بأن لم الشباب يقف في عروقه .. من أجل لحظة كهذه يقف الشباب سيرات آباءهم وهم يتسلقون بسرعة جنونية .. ومن أجلها يقف الشاب عندما على رصيف محطة القطار يثرثر ساعة مع زميله ، فلذا تحرك القطار

وتسرع قرر أن الوقت قد حان للوثب فيه .. من ثم تنزلى بده
ويسقط تحته ..

الإحساس بالفتوة .. الدماء التى تطفى .. هذا هو ما يدفعه
للتوثب والصراخ .. دعك من أنه أكبر طفل فى الأسرة .. لكنه
لم يعد كذلك .. غداً سوف يسمحون له بأشياء أخرى أهم من
اصطياد الضفادع المليئة بالماء ..

هكذا تنتظر حتى حل الظلام وتعالى غطيظ للنسوة والأطفال .
تسأل من الكوخ ..

فقط رأى بطرف عينه (توى) الكبير يقف خارج الكوخ وقد شى
ركبته ليربح كف قدمه على ساقه الأخرى .. لوقفة لمعتة للبوшمن ..
للظلام دامن والبوшمن خفوا الحركة .. لا أحد يمكن أن
يخدع بوшمن سوى بوшمن آخر ..

لهذا لم يجد صعوبة فى الاعتماد عن الكوخ ..

راح يتدحرج فوق الرمال الباردة المظلمة .. يتدحرج مبتعداً
عن موضع الكوخ .. لقد ابتعد كثيراً جداً .. هناك أوكية صغيرة
من أشجار الرعاة .. توغل وسط الأشجار وراح يسد للطنات
بالريح لخصوم وهميين ..

هيه .. هيه .. خذ اخذ ا

لبوشمن مسالمون لكن ليس هو .. إنه يعرف كيف يقتل ..

ولكن ..

فجأة شعر بأن ساقه لا تحمله ..

ما العيب يا ترى ؟

★ ★ ★

عندما لمست أقدامه للرمال المبهتة أدرك من لزوجتها ودفعها
أن هذا دم ..

أصابه الهلع وتحسس ساقه أعلى قليلاً . إنها تنزف .. يرى
ذلك الثقب القبيح فى منتصف فخذه .. هناك من أطلق عليه النار
على طريقة البيض فى القتل .. تلك المواسير التى تنفذ النار ..
من فعل ذلك ؟

لماذا لم يشعر بأى ألم ؟

راح يزحف على أربع خارجاً من الأيكة وسط الظلام الدامس ..
هنا رأى القنمين ..

الكابتن (سميت) | الكابتن (سميت) الشيطان الذى اعتاد
الكبار أن يخيلوه به |

(هارا) غاضب منه .. (هارا) غاضب منه ..

يرفع رأسه ليرى تلك الأوربي الذي يلبس ثياباً خاكية ممزقة وفي يده بندقيّة .. هو شيء مشوه بلا رجة تقريباً .. برز نصف للجصّة .. لقد القمضة على السلاح أيضاً لم تكن على ما يرام .. كانت عظمية تماماً .. عيناه تشتعلان كحمرتين من نار ...

كان ينظر له من أعلى ..

ويبد قسيّة أصمك برأسه .. كانت تلوح من يده راحة البارود .

كان (توي) الآن في مرحلة الهكاه .. الآن فقط تذكر أنه لم يزل طفلاً ..

سوف يسمع (توي) الكبير الطلقة .. سوف يهرع ليبحث عن مصدرها لكنه لن يجد شيئاً كما في كل مرة .. وسوف تتقل الأسرة معسكرها مرة أخرى ..

لكنه لن يكون هنا ..

إن ما يحصله كابتن (سميث) هو نصل .. نصل طويل جداً .. وهو يمسك برأسه .. إن ...

في الساعة التالية كان لدى كابتن (سميث) عمل كثير ..

لقد جر الجثة مبتعداً .. مشى كثيراً جداً حتى بلغ تلك الموضع البعيد وسط قنور الملح ..

إن الليل يجعل الرمال باردة ، لكنه يعرف أن الشمس ستسطع
بعد قليل ، وسوف تتحول الرمال إلى حمصة حقيقية ..

ألقي بجثة الفتى ، ثم بدأ يمارس العمل للرهبان الذي قام به
عشرات المرات من قبل ..

إن الكواسر وبنات أوى يمكن أن تؤدي هذا العمل بشكل
أفضل ، لكنه بحاجة إلى التحرين ..

سوف يصلح هذا المكان ليحمص فيه المزيد من الهياكل
العظمية فيما بعد .. إنه مولع بترك هذه الهياكل متجاذرة ، فهذا
يجعل المشهد رهيباً ..

في الظلام يتصاعد الصوت المقلز .. شليك .. شلاك ..
شلوك ..

أشعل بعض النيران لتجعل الرؤية أفضل وراح يواصل
عمله ..

كانت نساء الحجر تفر إلى الشرق عندما تنتهي من
مهمته ، وبالفعل كانت بعض الجوارح تحوم في الجو وقد أصبحت
لؤلؤية عن بعد ..

سوف يعود الآن ..

من الواضح أنه لا جهة تهتم بهؤلاء البوشمن .. لقد صار
يقوم بهذا الفصل كل ليلة تقريباً وبرغم هذا لم يتقبه أحد .. ولم
يلاحظه أحد ..

البوشمن لن يجسروا على ملاحظته .. هو يعرف هذا يقيناً ..
إنهم يجيدون اقتفاء الأثر ، لكنهم يعرفون جيداً من هو الكاتب
(سميت) ..

سمع صوت الطائرة ..

رفع رأسه ليلمح تلك الطائرة الجارح أبيض اللون يطير نحو
الشمال ..

إنه يدور دورة واسعة .. واضح أنه يلقي نظرة عليه ..

لقد رآه .. هذا أكيد ..

تناول بتدقيقه الملقاة على الأرض ولحكم التصويب .. لا يتوقع
أن تبلغ الرصاصة هذا المدى لكن ربما بشيء من الحظ يمكن
أن .. إن الطائرة منخفضة على كل حال ...

أطلق رصاصته الأولى فالثانية ..

في هذا التفر لا تصدر الطلقات صوت (يوم) لكنها تبدو
بصغير من قم عملاق .. صغير يتلوه ألف صغير بفعل الصدى ..

لقد تلقى الأحمق الرسالة ..

آلة يهتد ..

وعبر الصحراء الصامتة الخالية تردت ضحكاته ، فردتها
الجوارح ..

9- فتاة ثانية ..

اسمها (نترمبي فوثي)...

بالنسبة لنا يبدو هذا مجرد اسم أفريقي صعب ، لكنك يجب أن تكون من جنوب أفريقيا كي تميز رنين الزولو الواضح في هذا الاسم .. معنى الاسم يحمل خيبة الأمل التي لاقتها طفلة حبيبتها .. إن معناه هو (إنها فتاة ثانية) .. واضح طبعا أنه اسم يطلقه الأب على فتاة زولي بها بينما كان يأمل أن يزرقي بولد ..

لهذا عاشت (نترمبي فوثي) حياة جديرة باسمها .. لم تشعر قط أن هناك من يريد لها ..

في سن الخامسة عشرة جاء ذلك الرجل الأبيض ليطلبها من أبيها .. إنه رجل إسكتلندي .. هذا ما عرفته فيما بعد كما عرفت الكثير من نقاته .. بالنسبة للزولو هي إهانة أن تتزوج ابنتك واحداً ليس من الزولو ، لكن أباها قبل .. أي أنه ألقاها للكلاب بالمعنى الحرفي للكلمة ..

اسمه (أرشيبالد إينوكس) .. لا تعرف عمله ولا مصدر

رزقه ..

فقط هي امرأته وله أن يأخذها إلى أي مكان ..

ضخم الجثة .. أحمر الوجه .. منتح .. له عينان زرقاوان
تبعثان الذهب ..

إنه يشرب الخمر بإفراط ويضربها كثيرا جدا .. كانت
معلوماتها عن الرجال هي أنهم يضربون للنساء .. هذا كل ما
تعرفه ..

فقط عندما يصلو مزاجه كان يخبرها بمزيج من لغة الزولو
ولفته الانجليزية أنه (يقدم خدمات لحكومة بتسوتا) .. مرتلي ..
هذا هو ما فهمته من الأمر ..

على كل حال كانت تعرف من لوائمه التي في البيت
أنه يمارس عملاً شبه عسكري .. بنقبة .. ممدمة ..
خناجر .. وكان يغادر الدار عدة أيام ثم يعود وهو يحمل الكثير
من المال ..

لم تكن أسرته ترحب بها ولا قبيلتها .. هكذا لم يكن في
جعبتها إلا أن تكون زوجة مطربة ..

اسمها (نومي فوشي) ..

هى من هؤلاء الذين جاعوا للحياة كى يتلقوا الركلات
ويموتوا فلا يذكرهم أحد .. إتهم كثير .. وهم لى كل ركن من
هذا العالم ..

لكن هذه ليست قصتنا ..

لم يكن (لينوكس) ملاكاً قط فى أية لحظة من حياته .. فقط
كان أقل خيالاً .. كان مجرد زوج متوحش .. وهى لم تسمع قط
عن زوج غير متوحش ..

منذ عام بدأ الأمر يتغير ..

هل وقع هذا بعد الحادث ؟ ربما ..

القصة كما عرفتھا فيما بعد هى أن زوجها كان ثملاً ،
وقد جنس فى حانة قذرة فى (بيربان) ، ولعب الميسر مع
بعض الفتوة السود .. عندما خسر رفض أن يدفع لهم ..
قال إتهم سود قذرون وإله ما كان ليلعب مع حيوانات
مثلهم ..

كانت النتيجة هي أنهم أوسعوه ضرباً .. جروه خارج الحانة
وركلوه وضربوه ، ثم جاء أحدهم ببطارية سيارة وسكب ما فيها
من حمض على الأسكتلندي .. على وجهه وبذيه ..

فر الفتية مذعورين وقد أتركوا شناعة ما قاموا به ..

لم يمت زوجها .. لم يفقد عينيه .. لكنه تشوه بشكل مخيف .. لم
يكن هذا ليضايقها كثيراً .. في قرينتها مسنون أصبوا بالجدرى
ولم تعد رؤية وجوههم محبة .. فقط كانت مستعدة كي تمنحه
رعايته وحبها لو أنه تغير ..

بالفعل تغير .. لا أحد يمر بتجربة كهذه ولا يتغير ..

كان متوحشاً فصار مسعوراً .. كان لظاً فصار مجنوناً
تعلماً ..

كان أول ما قام به هو أن أخذها إلى صحراء (كالاهارى) ..
لتخذ حياته في كهف هناك .. كهوف (كالاهارى) واسعة تسمح
بحياة أسرة ، والطريف أن هذا الكهف بالذات - قرب منطقة
تشابونج - كان مخفر شرطة بريطانيًا في الماضي .. ربما لوائل
القرن العشرين ..

هكذا وجدت أنها تعيش حياة بدت لها - وهي من الزولو -
بدائية جداً .. تشعل النار بطريقة بدائية ، وتستخدم الماء الذي
يجلبه لها من مكان مجهول .. تظهر الصيد الذي يأتي به ..

في المساء يخرج ليقيم بجولة وهو مزيج بالصلاح الفاري
والأبيض ، ثم يعود في الصباح مرهقاً ملطخاً بالدم .. ينام ...

من حين لآخر يقابل عربة اندروفر تستعمل أحد المدقات
القديمية ، لتحمل له ما يلزمه من خمر .. وهو حريص على ألا يعرف
أحد موضع هذا الكهف ..

لقد كف عن الكلام نهائياً .. فقط عناء ترسلان الشرر طيلة
الوقت ..

في بعض الليالي تخرج من الكهف لتجده واقفاً يصرخ في
لا أحد .. يلوح بذراعيه ويلكم بقبضته الهواء ، ويطلق شتائم
بلغة التي لا تعرف أكثرها ..

فإذا شعر بها استدار ونظر لها بعيني النمر .. ويقول :

- « إتهم هناك .. ينتظرون كأرنب خائفة .. هل تفهمين ؟ »

هذا ؟ »

ثم يوسعها ضرباً بلا حساب ..

فقط في إحدى الليالي قال لها :

- « غريبة هي ألعاب الحظ .. طائرة تسقط على بعد مائة متر من موضع في الصحراء .. بوف ا كان المشهد مريباً .. مقدمة الطائرة تغرس تحت الرمال وتسطح لمسافة مائتي متر .. أنا كنت هناك .. جريت إلى موضع الطائرة واختلعت النظر عبر النوافذ .. رأيتهم جميعاً فاقدى الوعي .. رأيت هؤلاء الأوروبيين من مكمنى .. لا أحد يستطيع الشور على (سكوتى سميت) أبداً .. »

لا تعرف لماذا صار يطلق على نفسه هذا الاسم .. لكنها قبلت حقيقة أن (سكوتى سميت) هو زوجها ..

مسح لمة بعد جرعة مخية من الوبسكى ، وقال :

- « رأيتهم يخرجون من الطائرة .. يتكلمون .. رجلان وامرأة .. ثم يعودون للطائرة .. كأنهم يبحثون عن شيء .. بعدها قرروا أن يتبعوا أسراً من (الميركات) .. تصوري لعمقى يعتمدون في النجاة من (كالاهاى) على (الميركات) ! ! لما تواروا اتجهت إلى الطائرة لأرى ما يمكن أن يوجد في حطامها

من أشياء .. يوف ! لم أعرف أن للطيار الأحمق حى بالداخل ..
 خنزير هولندي من (البوير) يحمل مسدسنا .. لنا تعاملت مع
 الهولنديين وأكرههم كالجذام .. كان مذعورًا كالتجيم ولعله
 حسبنى الشيطان ذاته .. رفع المسدس لكنى ألقيت رأسه بطلقة
 من مسدسى لنا .. وجررت جثته خرج الطائفة .. عدت للطائرة ..
 لم أجد شيئًا ذا بال .. هكذا جررت جثة هذا الخنزير عبر
 الصحراء بحثًا عن مكان يصلح له ... »

ثم تذكر أنه يثرثر أكثر من اللازم ، فنفع خديه وتجشأ للداخل ،
 ثم قال :

« لقد قابلت هؤلاء فى تلك الليلة .. كانوا مذعورين وهم
 يحدقون فى غير مصدقين .. لابد أنهم حسبوني شيطانًا كما فعل
 الطيار ، وفكرت فى أن أطلق عليهم الرصاص ثم قررت أننى
 لا أسعى وراءهم .. سوف تتكفل بهم الصحراء .. هكذا تركتهم فلم
 يجرؤ واحد منهم على أن يتحرك أو يتبعضى .. أروع شيء فى
 العالم هو أن تكون مرعبًا .. لا أحد يجسر على الاعتراض ..
 لا أحد يمنعك من نيل ما تريد .. »

ثم صمت وقد تذكر شيئًا ..

كانت هي تحاول فهم ما يقول .. ففتها كلام كثير .. على كل حال لو أن أستاذ لغة إنجليزية سمع هذه المحادثة لفاته الكثير كذلك ؛ لأن اللهجة الأسكتلندية مستحيلة للفهم فعلاً ..

صمت زوجها كثيراً ثم تذكر فجأة ..

وجه لها نكمة في فكها فذقتها لتضرب جدار الكهف .. وللمرة
الآلف سال الدم من قمها ليغرق صدرها ..

وصاح وهو يلوح بالزجاجة الفارغة :

- « أيتها القذرة ! لماذا تقومين باستجوابي ؟ لو لم تكن بحاجة
إليك لفجرت رأسك هنا والآن .. »

اسمها (نتومبى فوشى) ...

معنى اسمها هو (إنها فتاة ثائرة) ..

لهذا كان عليها أن تتحمل قدرها وأن تصمت ..

10- الزوجة ..

قرص الشمس بطنها واضحة : لنا لا لتفارض ولا لتسامح !

قلت لهما ولنا لترنج من فرط الإرهاق :

- « من ذلك الأحمق الذى اقترح أن نترك أسرة البوشمن ؟ »

قال (فاسبلى) وهو يضع نراعه على كتف (سيمونيّا) :

- « (مارثا) .. فليرحمها الله .. »

- « حسن . كانت فكرة غبية .. لقد قتلناها وكنهنا فوقنا وقتلنا

(البوشمن) ضمتنا الوحيد على نبقى أحياء .. »

هنا صاحبت (سيمونيّا) فى خطيبها مغتظة :

- « ارفع نراعك .. أنت لا تصرى على بل تزيد الحر سوءاً ..

يبدو لى كأن ساعدك لحم مشتعل ! »

اعتذر لها فى خجل .. الحقيقة أننا كنا فى حال سيئة ..

نحن فى مكان فى الشمال الغربى لجنوب أفريقيا .. فى مكان

ما من (كالاهاى) ..

لكن ماذا بعد ؟

هجرة رانك (سيمونيتا) على الأرض .. لا يوجد قتل شجرة
ولا شيء على الإطلاق .. فقط تفرد بينها وبراءتها كلها مصلوبة ،
وتنظر إلى السماء وتقول بعينين مضضتين في وجه محترق
تماماً :

- « انتهى الأمر . رحلتى تنتهى هنا .. »

ركلت بعض الرمل في وجهها فلم تنكمز أو تستم .. الأمر بهذا
الموءفن ..
قلت لها محنفاً :

- « لسوا وقت يقرر فيه المرء أن يموت هو عندما يكون معه
مخزون من الماء والطعام .. عندما كنا مجردين من أن عون
كنت نشطة كبرخوث .. »
قلت مضضاً للعينين :

- « لم تفهما بعد ؟ نحن قد كتب علينا الموت في (علاهلر) ..
ما نفعه هو تخلص بين مخالب الموت .. ربما يطول لكن ما هو
محتوم محتوم .. تسقط بنا الطائرة فنجد .. فقط لنقبل (سكوتى
سميث) فلا يؤذينا .. ثم نضع هينقنا للبوشمن .. فقط لنقع في
قبضة جنود بتسواقين أوغلا .. نلزم منهم لتعود لدائرة الضياع ..
نحن لن نخرج من هنا .. »

قال (فاسيلي) وهو يجلس جوارها :

- « لن أذهب لأي مكان من دونك .. »

- « أنت أحمق .. »

- « وأنت حسناء إلى درجة أنني لا أصدق ما أراه .. »

تحسست وجهها وضحكت في مرارة ، وقالت :

- « لقد احترق جلدي بالكامل .. لو نجونا لوجدت لي أدوارًا

ممتازة في أفلام (الجوالو) المرعبة .. »

ومسحت بعينيها الأثني ، ثم هبت صارخة :

- « هل تريان ؟ هناك ألبها الأحمقان ! هناك »

تهللت للنظرات مع (فاسيلي) .. إما أنه المصاب أو أن أعراض

زيادة الضغط الأسبوزي لخلايا المخ قد بدأت .. سوف نلقد هذه

البقعة قريبًا ..

قالت وقد استعادت نشاطها بالكامل :

- « هناك .. عند مجموعة الكهوف تلك .. لقد تحرك شيء .. »

أنا واثقة مما أقول !

- « ربما كان حيوانًا ما ؟ »

- « أو ربما بعض البوشمن ! »

ثم نهضت وراحت ترتض في ذلك الاتجاه .. صاح (فاسيلي) :

« احتفظي بقواك أينما للتصية ! »

لكنها كانت تتعثر فتتهض .. تتعثر فتتهض .. وسط قدور الملح الكثيرة تجري ونحن وراءها ..

كانت مجموعة الكهوف تنح في تلة ارتفاعها عشرة أمتار .. حوال أربعة كهوف لها سمت العيون التي تحملق فيها ..

على الأرض وجدت لافتة خشبية دلفتها الرمال فأخرجتها .. كانت عتيقة جداً وقد فُتكت بها عوامل التعرية ، لكنني استطعت أن أقرأ : LICE ...

طبعاً لا أحد يضع لافتة للإعلان عن وجود قمل .. أرجح أن اللافتة كانت تقول POLICE .. قرأت في مكان ما أن أقسام الشرطة البريطانية كانت تتخذ مكاناً لها بعض كهوف (كالاهاري) .. لكن هذا لا يدل على شيء .. نحن نتحدث عن مخفر شرطة كان هنا منذ مائة عام ..

كانت (سيمونيتا) تتساقى التلة في نشاط .. رشيقة خفيفة جداً فلا يمكن اللحاق بها ..

صحت في (فاسيلي) الذي كان أسرع مني :

« الحق بها ! هذا الكهف قد يكون مأوى للثعابين أو لاسد (كالاهاري) .. إنها حمقاء ! »

راح يتسلق التلة ولحقت به محاذراً أن أسقط .. إن الصغور
بارزة جداً تسهل عملية التسلق كثيراً ..

كنت هي الآن في القمة عند أول الكهوف ..

حكمت تصيح :

.. « هيه ! لن هنا ! »

في هذه اللحظة لحقتا بها .. وأمسكت (فامبيلي) بمساعدتها
ليهرب حماسها بعض الشيء .. كانت شبه مجنونة والرمل يتخلل
شعرها ، وهي لا تكف عن بصفه طيبة الوقت ..

لم يكن هناك داع للتفتيش لأننا وجدنا للمرأة تقف عند مدخل
الكهف الثاني ..

امرأة من القزولو كما هو واضح .. تصبة جداً .. فهبحة جداً ..
تلبس ثياباً أوروبية وترمقنا في ذعر .. تلتصق ظهرها بجدار
الكهف وترتجف .. كانت تعمل في بدها وعاء به ثياب مبتلة ..
ربة بيت عادية جداً كانت تمارس النضيل .. فقط هي تعيش في
كهف في (كالا هاري) !

قلت لها بصوت عال :

.. « ساكوبونا ! »

لكنها لم ترد ..

قال لها (فاسوني) :

- « نحن ضالعون في هذه الصحراء .. من أنت ؟ هل تفهمين الإنجليزية ؟ »

أظرت له في دعر . ثم قالت بالإنجليزية رديئة جداً وشفتاها ترتجفان :

- « أنا زوجة (سكوتى سميث) ! »

★ ★ ★

11- بيت الغول ..

اسمها (نتوعبي فوئي)...

وفي الساعة التالية قدمت لنا الطعام والشراب وحكمت لنا
بتجليزيتها الرديئة كل ما تعرفه أنت من الفصل التاسع ..
لم تكن تعرف أكثر .. إنها فعلاً لا تعرف زوجها على الإطلاق ..

الغول .. أين كان وهكذا ؟ زوجها لم يكن موجوداً .. كان في إحدى
جولاته للغامضة ، لكنها تعرف يقيناً أنه سيرجع .. هذا ذكرني
بتخصص الأطفال الغربية .. زوجي هو الغول .. تعالوا يا أطفال
أخبركم منه .. سوف يعود ويزمجر من منخاره : في في فو فام ..
أشم رائحة رجل إنجليزى ..

لا شك أن هذه الفكرة تهب رجفة في العروق .. فعلاً لا أريد
أن أنتظر حتى أقابله ..

لما عن لكهف نفسه فإن بوسعي أن أصفه لك .. إنه واسع في
مساحة قاعة محاضرات صغيرة .. لابد أن يكون واسعاً إذا كنا
نحدث عن قسم الشرطة البريطانية للسيطرة على (كالاهاى) ..
كما توقعنا كان هناك مخرج آخر ضيق في نهايته ، لكنه مسدود
بباب حديدى ..

هناك فرائشان من طراز رخيص .. هناك موقد صغير يعمل بالكبروسين .. هناك مجموعة من الخرائط ، ومجموعة صور فوتوغرافية عتيقة .. عتيقة تمت للقرن الماضي .. فى هذه الصور ترى (سكوتى سميث) الحقيقى .. المغامر الذى خلدته التاريخ .. هناك صور أحدث للزوج .. صور تحمل طابع السبعينات .. لم يكن جميلاً كالملاحة .. كان مخيفاً لكن ليس كما رأينا فى تلك اللبلة ..

هناك بنائى وخناجر مطقة .. هناك رماح .. هناك صناديق يبدو أنها تحوى مفرقات أو ذخائر .. كما أن هناك ملفات بالية .. أكلها منها .. واضح أنها لعهد من هذا الكهف فيه مخفر شرطة ..

هناك الكثير من زجاجات الكحول .. صندوق سجائر .. علب ثياب .. شعوع .. هناك برميل ماء ..

أعتقد أن الرجل يملك سيارة أو على اتصال بسيارة ما .. من المستحيل أن ينقل كل هذه الأشياء عبر الصحراء ..

أما الجائزة الكبرى فهي سدس إشارة مع طلقات .. لا أعرف كيف يعمل لكن لن يكون اكتشاف هذا صعباً ..

هكذا جنسنا تتناقش بينما الزوجة النصبة تراقبنا فى رعب ..
ثمة شيء مخيف فى هذه المرأة .. لم اعتد أن ألقى إسمها
مستسلماً لقدره فهذا الحد ..

قلت لـ (فاسيلى) :

« نحن لا نعرف تفاصيل أى شيء .. لكن من الواضح أن
زوجها هو الذى يفعل هذه الأشياء بالبوئمن .. »

قالت (سيمونيتا) فى لهفة :

« إذن زوجها هو رجل الرمال .. »

لم أعلق على هذه النقطة برغم أننى أعرف الإجابة الصحيحة ..
فتسأله (فاسيلى) :

« لكن لماذا ؟ »

« كيف لنا أن نعرف ؟ ربما هو مجنون يعتقد أنه تجسد
(سكوتى سميث) أو شيء من هذا القبيل .. على كل حال لقد
أحرق السود وجهه وهذا جعله وحشاً مسعوراً يبقى الانتقام .. »

« لاحظ أن اسمه الأصلى (أرشييلد لينوكس) .. هل تتكررن

ما كان اسم (سكوتى سميث) ؟ »

نظرنا له محاولين التذكر ، فقال فخوراً بذاكرته :

- « (جورج ليجر لينوكس) .. يمكن بشيء من الخيال أن نتصور أن زوجها هو حفيد الرجل .. لقد قرر أن يحيى تراث جده العظيم .. لقد كان هو الصيد الأخير في أسرته .. »

بدوى تظرت للخطيبين متسائلاً :

- « هل من أحد يشك الآن في أنه من قايينا في تلك الليلة وحسبناه شيخاً ؟ »

هزأ راسيهما أن لا ..

- « نحن نعرف الآن أنه هو الذي تسأل لحطام الطائرة وهو القتل (هوللى) الطائرة .. لكننا لم نعرف كيف ظفرب (مارثا) .. هناك جزء مفقود من لحظة سقوط الطائرة حتى ظهورها عند البوشمن .. »

وساد الصمت ، ثم نهض (فاسيلي) يتفقد الصناديق ..

أطلق صيحة متحمسة .. نهضت لأرى ما وجدته لرأيته بحمل مجلس الإشارة .. يا له من أحمق ! يثر غيظي من يكتشف ما شبها من اكتشافه منذ زمن .. فجأة يصرخ أحدهم . الشمس ! هذا رقع ! إنها تمدنا بالضوء والدفء ! !

نظرت إلى المرأة .. إننا نتصرف كأنه لا وجود لها .. برغم كل شيء هذا هو بيتها وهذه الأشياء حاجياتها .. لا يمكن أن تأخذ ما تريد ..

نهضت (سيمونيّا) بدورها تتلفذ الصناديق ثم أخرجت لفائف تذكرك برقائى الأومنيوم التى يلفون فيها الطعام ..

قرأت المكتوب على اللفائف ، ثم قالت :

- « هذا نوع من مشاعل الإشارة لدى الجيش البريطانى .. هذه الرقائى تظل مشتعلة لفترة طويلة إذا لامست النار .. »
قلت لها باسمًا :

- « هذا المكان يعطينا أفكارًا رائعة .. »

ومددت يدي فى صندوق .. هذه الأصابع التى تشبه أعلام الرصاص الغليظة مكسوة بالشحم .. لا يجب أن أكون عبقريًا لأفهم أن هذا ديناميت .. التفتت بضعة أصابع منه ودمستها فى جيبى .. فقط ادعوا الله ألا يتفجر فى الشمس .. ثم أمس أن آخذ علبتى ثقاب كذلك ..

قال (لاسيلى) :

- « اقترح ان نأخذ ما نستطيع من سلاح .. إن لم نستصله
 فعلى الأقل نحرمه منه .. »
 - « هذه فكرة لا بأس بها .. »

دسست مهندسين فى خزائى كائنى محتسرف ، بينما أخذ
 هو بندقية .. (سيمونيكا) الرقيقة أخذت خنجراً .. إنها جربت
 القتل بالسلاح النارى على كل حال ويبدو أنها راجحة فى
 القتوبع .. فكذا بدأ منظرننا كالحمير العائدة من الحقل عند
 الغروب ..

كانت الزوجة الآن قد انتهت لصلية السلب المنظمة .. لذا
 قررت ان تحتج ..

- « لا . لا .. لن تأخذوا أى شىء .. (سكوتى) سوف .. »
 قلت لها فى هدوء :

- « لا أدري إن كنت تفهمين كلامى .. لكن زوجك سلاح
 ونحن باتسون .. هذه التركيبة تعنى أننا سناخذ ما نريد مهما
 اعترضت .. »

فجاء دوت الطلقة التى ارتج لها الكهف ..

احتجنا لوقت أطول من اللازم كي نفهم أنها طلقة رصاص
وأنها جاءت من الخارج ..

وسمعا ذلك للصوت الغليظ الشبيه بصوت أسد جريح يصرخ :

- « اخرجى والثلاثة الذين معك أيتها الكلبة السوداء !
لا تتكروى شيئا فأنار أقدامهم واضحة على الرمال .. لا أحد
يستطيع خداع (سكوتى سميث) .. لا أحد ! »

12- خططا بلهاء ..

من جديد نوت طلقة .. ثم أخرى ..

متى قلت إن الطلقات في الصحراء لا تبدو كطلقات بل كعويل أو صفير .. يتردد ثم تليه صرخات أخرى هي الصدى .. ؟

إن الرجل يطلق لرصاص على كهف من الخارج، وهو يطلق بينهم وجشع كئبه مستقاضي مالا إذا فرغ طلقاته بسرعة .. واضح أن عبار هذه الطلقات غير طبيعي .. واضح كذلك أنه لو خرجت ذبابة من الكهف لظفر بها ..

لوح (فاسيني) بالبنشينة وهرع إلى المدخل، فجذبه من ذراعها صاخًا بالعربية: (يخرّب بيتك!)، ثم أردفت بالإنجليزية:

« ماذا تفعل أيها المخبول ؟! »

طبيب ثم يطلق سلاحًا ناريًا في حياته .. طبيب أعطى عويناته هدية للبرشمن .. يبرز من مكان واضح مكشوف للعوان، ليبدل قاتلاً محترفاً ذا خبرة عسكرية الطلقات .. قاتلاً لا نعرف أين هو .. لو عاش هذا الطبيب أكثر من عشر ثنية فلنا أحسن ..

هنا اندفعت المرأة لمدخل الكهف وهي تقول كلامًا كثيرًا بلغة الزولو ..

ماذا تقول ؟ لا أعرف .. لكنه على الأرجح من طراز (لا ذنب لي يا سكوتي .. هم من ألتهم المكان .. لا تطلق الرصاص) .. لا بد أنه شيء من هذا القبيل ..

حاولت أن أعرض طريقها لكنها أراحني جانبًا ..

خرجت من الكهف وسمعتها تتكلم ثم دوى الصفير من جديد .. توقفت عن الكلام فجأة وبعين الخيال رأيتها تتخرج من فوق التلة لتسقط على الرمال وتنزف ..

بالفعل لم يستغرق الأمر أكثر من ربع ثانية ..

لم تكن طلقة واحدة بل طلقتين .. ثلاث .. أربع ..

ونظرت إلى الخطيبين فوجدت (فاسيلي) يدفن وجهه في يديه ، و (سيمونيّا) تنظر لي في ذهول ..

لقد قتل الرجل زوجته .. ومن جديد عادت الطلقات تهمر على الكهف ..

إنه مخبول تمامًا وفي حالة غير مسبوقه من عدم الاستقرار النفسي ..

لا أعتقد أنه يستطع طلقته .. لا شك أنه يحشو هذه الهندية
خلال ثوان ..

لا يمكن الخروج من هنا ..

اسمها (نتومى فوئى)...

ومن الواضح أنه لم تعد هناك فتاة ثانية ..

هرعت إلى مؤخرة الكهف حيث كان المخرج الثانى .. أخرجت
المسلس وفرت نراعى عن آخرها وأدت وجهى للجانب الآخر ،
وانتظرت حتى لوى صوت طلقة أخرى من هندية (سكوتى) ،
ثم ضغطت الزناد .. كنت أصوب على الجزير القليل الذى يلقى
البوابة ..

لحقت عيني بينما أُنْذَى تصفيران بلا انقطاع .. ورائحة البارود
تختل أنفاسى ..

لم يكن الجزير قد تأثر . لذا أطلقت عليه من جديد ..

فى هذه المرة تداعى .. وسحبته من موضعه وفطحت للبولبة ..

هتفت (سيمونيتا) :

- « من ابرقا أنه ليس بانتظارك فى الجهة الأخرى ؟ أنه
شيطان .. »

قلت فى نفاذ صبر :

- « سنقامر بحظنا .. على كل حال طلقته مستمرة من الجهة
الأخرى حيث المنخل الرئيس .. اعتقد أنه مطمئن إلى أن الكهف
مظلم من هنا .. »

وسرعان ما كنت أخرج متوقفا رصاصة تنهى قصتى
للمصاحبة ..

كنت أتمسك تلة صخرية عالية .. بالطبع (سكوتى) يقف
أسفل الجانب الآخر من التلة .. تمسكت أكثر حتى بلغت موضعا
مستويا فرقت مسطحا أرقب للصحرَاء من حولى ..

لمست يد كاحلى فارتجفت هلعاً . ثم تبينت أنه (فاسرلى)
يلحق بى .. بعد هذا جاءت (سيمونيتا) .. لا بأس بهذا الموضع ..
إنه مرتفع فلن يباغتك أحد من أعلى ..

في هذر زحفت على بطنى حتى اقتربت من جهة الأخرى
للثقة .. من جديد تدوى طلقة ثم طلقة .. الصغير يصم لئننى
والرمال تتطاير ..

من موضعى هذا أرى للصحراء تحتى وأرى جثة للزوجة
لرايدة وسط الرمال .. لما نقت أكثر رأيت ذلك الرجل الذى
يحمل بندقية ويتسلق الصخور كالشيطان .. كان مدججا بالسلاح
الأبيض والفلأى .. لكنه كان تحتى .. كان تحت سيطرتى ..
غاللا .. لا يعرف لئننى هناك ..

نظرت للمسدس فى يدى .. هذا لرحمن من الفلام (سورجيو
ليونى) حتى أوديه بطلقة رصاص .. دعك من لئننى أسوارام
عرفته فى حياتى .. سوف تطيش الطلقة وتكشف عن مكاننا
للمنتظر ..

استكرت إلى (فاسينى) ، وقت له همسا :

- « به يتسلى إلى الكهف الآن .. لا ضمن النتائج لو أطلقت
الرصاص عليه .. أخرج أن نحاول غلق الكهف وهو بداخله .. »
- « وكيف ؟ »

أخرجت إصبعي ديناميت وتاولته عليه ثقاب ..

- « سوف ألقى بإصبع مشتعل في الكهف من ناحيتي .. وسوف
تفعل الشيء ذاته في مؤخرة الكهف .. أعتقد أن انهيارا سيحدث ..
هذا الانهيار سيسجنه بالداخل .. »

هز رأسه في عدم التنازع .. هذه الحلول السينمائية فلما تجدي ..
أعرف هذا للأسف ..

قلت له في توحش :

- « هل تجد حلاً آخر ؟ »

لا .. هكذا رجفت على بطني ممسكاً بالديناميت إلى حيث
صرت أرى فتحة الكهف بوضوح .. لا أثر للرجل .. واضح أنه
يخلل الكهف فعلاً .

هنا سمعت (فاسيلي) يصرخ من ناحيته ..

نهضت لأرى ما هنالك ..

وجدته نائماً على بطنه بطل في هلع إلى أسفل ..

نظرت من فوق الحطة لأرى ما يراه ..

رأيت (مكوتى سميت) يتسلى متجهاً نحونا من تلك الجهة ..
 فى الواقع كان على بعد مترين أو ثلاثة من الحافة التى نقف
 عليها .. فى عينيه نظرة متوحشة مجنونة لا شك فيها ، وقد تكفل
 وجهه لذائب جعله يبدو كالمضطربان قداماً ليستلب أرواحنا ..
 كانت بندقيته على كتفه ، وقد أطبق أسنانه على خنجر كانه
 قرصان يتسلى صارى سفينة ..

لقد استنتج خطتنا ودار حول الكهف ا

لو لم ننظر أسفلنا لوجدناه فوق رؤوسنا فجأة ا

* * *

13- قلتهم أيها الأحق ..

كان قريباً جداً .. من المستحيل أن أخطأ .. حتى لو كنت
أسوأ رام فى العالم وأحصينى كذلك ..

فيما بعد ذكرونى أن أحكى لكم دعيات الغربيين عن الرجل
الذى يفشل فى إصابة بذابة بمدفع وهو داخلها ! أو الذى يطلق
الرصاص على رأسه فيقتل رجلاً فى أول الشارع .. ثامن هذا
الطراز ، لكن هذا ليس الوقت المناسب لو لاحظتم ..

هكذا ضغطت على إسئلى وأحكمت التصوير .. لا مجال
للتردد ..

لو كنت متردداً فعليك أن تنكر زوجته التى ماتت منذ بقية ..
تنكر (فولفى) الطيار .. تنكر (مارشا) .. تنكر هياكل البوشمن ..
لو ترددت بعد هذا فلنأكل نحن ربح ولا إرادة ..

دوت الطلقات .. لكنه كان مستمراً فى التسلى .. طلقة .. طلقت ..
مع الطلقة الثالثة بدا غير مصدى .. ورأت الدم يتجهض من
ثقب فى جبينه ..

وتخلت مخالته عن الحافة فتخرج إلى أسفل ..

(علاء عبد العظيم) يقيم ميزان العدالة بيده للمرة الـ ...
لأنكر كم .. هل هذا من حقه ؟ اعتقد أنه من حقه هنا والآن ..
ولو لم يعل لتحول إلى جثة أخرى .. لتحولنا إلى ثلاث جثث
تلتهمها الضباع ..

لو كان هناك سبيل آخر لإقامة العدالة لاتخذته ، لكن الرجل لم
يترك لى الخيار .. هذه حالة دفاع مطروح عن النفس ..
إنه يسقط لأسفل .. يسقط .. يسقط .. يرتطم بالحجارة ثم
يرتد .. إنه يسقط ..

إنه يتكوم فوق الرمال الحمر وينزف .

(سمونيتا) سقطت على ركبتيها وراحت تؤدى مزيجاً من
للعيول والبكاء ولطم الخدين .. كل هذا كثير .. كل هذا العنف
لا يقدر جهاز عصبى على تحمله ..

أما أنا فارتعيت على ظهري فى وضع المصلوب كما فعلت هى
منذ ساعة .. ورحت أحدى فى السماء ..

لقد مات (سكوتى سميت) من جديد ..

مات الصيد الأخير ..

الأخير في مهنته القربية ..

والأخير في سلالته على الأرجح .. إن آخر السلالة بجن كما
هي العادة .. تأمل تاريخ الرومان وسواهم ..

لر كانت هناك مزية لهذا الذي فعلته فهي أن أي (بوشمن)
لن يموت قتيلاً بعد اليوم ..

(فاسيلي) أيضاً رقد منها ..

لا أعرف كم مر من الوقت علينا في هذا الحال ، لكن الشمس
لم تعد تحرق عيوننا ووجوهنا كما كانت .. لقد بدت تتحدر نوعاً ..

رياح باردة بدلت تتصلل لنا هناك فوق تلك التلة المرتفعة ..

قالت (سيموتينا) دون أن تنهض :

« اعتقد أننا سنقيم في هذا الكهف .. من الآن فصاعداً .. »

« ربما بهاجمنا شبح (سكوتس) .. كانت أمي تعتقد أن

الأرواح تبقى معاً لفترة بعد الوفاة .. في حكايات العجائز تخرج

هذه الفترة من 24 ساعة إلى أربعين يوماً .. »

« الشبح البائس لن يتحمل هذا الحر . »

قلت وأنا أنهض لأول مرة منذ فترة طويلة :

- « أولاً : يجب أن تدفن الجثتين .. أعتقد أننا سنجد ما يصلح لهذا في الكهف .. ثانياً : لابد من أن نعد عدتنا لليل .. »
وترجلنا من التلة ..

وهكذا رحلت و(فاسيلي) نقوم بتلك المهمة الكريهة كما فعلنا مع (مارثا) .. فهران عميقان على قدر ما استطعنا ..
جثة في كل قبر .. طبقة من الرمال للحمراء .. لا أعرف إن كانت حيوانات الصحراء تبحث لهذا العمق ، لكننا فعلنا ما استطعنا ..

في الوقت ذاته كانت (سيمونييتا) تلص رقائقي الألومنيوم الوهاجة هذه كما اتفقنا ..

عندما فرغنا ركعنا على الرمال جوارها ورحنا تعانقها ..

- « حذار وإلا نلقت الرقائقي بسرعة .. يجب أن نقتصد .. »

- « لو اقتصدنا لانتلّى الغرض منها .. »

كانت فصيلة صلبة طويلة لكننا انتهينا منها قبل اكتمال الغروب ..
قبل أن ترتسم ظلالنا داكنة طويلة على الرمال ..

ورحنا نضع قطعاً من الحجارة لتثبت أطراف التشكيل الذى صنعناه ..

كان عملاً فنياً عبثياً لكنك لن تستطيع فهمه إلا لو رأيته من طائرة ..

فى اللحظة المناسبة سوف يشتعل طرف الحروف من ثم ينتقل اللهب ليشعل فى التشكيل كله ، وسوف يرى الطيار بشكل واضح ناراً مشتعلة فى قلام الصحراء تخبره أنه :

SOS

وهى المعادل اللفظى لشفرة مورس (ثلاث نقاط .. ثلاث شرط .. ثلاث نقاط) التى كانت السفن الألمانية تستعملها لى الغرق ، ولهمت بمعنى (أنقذوا أرواحنا Save our souls) كما يعتقد أكثر الناس .. بما أن أغلب الطائرات التى مرت بنا مرت فجراً أو قرب الغروب فإن احتمال أن يروا اللهب عالية جداً ..

لكن المشكلة هنا هى أن الطائرة - لو وجدت - لن تخلق فرقاً إلا للحظات ، وهذا الورق لن يشتعل إلا للحظات ..

لهذا صار من الواجب أن ننسى وندبنا منتظمة .. هناك من
يجلس جوار هذا التشكيل ويصفي لصوت الطائرات مستعداً بطيئة
نظاب ، ومن مهامه كذلك أن ينظف الشكل ويذيب عنه أية رمال
تذروها للريح .. بينما يمارس الآخران حياتيهما ..

حياتيهما ؟

فيما بعد اكتشفت أنه لم تعد لنا حياة إلا هذه الرقعة ..
في الحقيقة صرنا نقضى أكثر الوقت حولها ننظر للسماء
وننتظر ..

سوف يأتي الطائر الحديدى من قلمسات (هيدر) .. سوف
يكون على منته تلك الشمالى الأشقر قوى العضلات .. ينظر لنا
من عل ويقرر أن يهبط لينقنا لبرحمتنا مثل الفلكيون إلى
(فلها) على نصات (فجنر) القوية التحاسية ..

أراه بعين الخيال يرمى رمال الصحراء ويبتسم عارفاً أنه
الموعد المختار .. لا نقيقة قبله ولا ثقبية بعده ..

لنسر أربها الأحمق ! جرب ذلك الآن ..

SOS - 14

لسبب ما أفكر كلمات (على محمود طه) فى (الجنود) إذ يقول بصوت (عبد الوهاب) لرخيم : « أه لو كنت معى .. » أه لو كنت يا (برنات) معى !

تجربة غريبة هى .. غريبة وساحرة لن تقضى حيلتك فى كهف وسط صحراء (كالاهارى) .. تمنيت لو كانت زوجتى (برنات) معى هنا .. ثم أتذكر أن الوقت ليس وقت الرومانسية ، وأنا غرقنا بالدم حتى صار من الصعب أن نجف .. هكذا كنت أشعر بأننى مراهق صغير ..

برغم كل شيء نحن فى وضع ممتاز .. هناك طعام ومأوى .. هناك سلاح ..

أفكر كلمات (سيمونيّا) فى لحظة قنوطها : « ما نفعه هو تخلص بين مخلب الموت .. ربما يطول لكن ما هو محتوم محتوم .. تسلط بنا الطائرة فنجد .. فقط لنقبل (سكوتى سميت) فلا يؤذينا .. ثم نضجع فيبتلعنا البوشمن .. فقط لنقع فى قبضة جنود بتسواتيين لوغده .. نلزم منهم لتعود لدائرة الضياع .. نحن لن نخرج من هنا .. »

أضيف لما قالته أننا ننجو من الضياع لنقع فى قبضة (سكوتى سميت) .. وننجو من (سكوتى سميت) لنعيش هذه الحياة البدائية

السلحرة في كهف في الصحراء .. لنا أعرف يقيناً أن هذا السكوتى
سميث كان على اتصال بالعالم الخارجى .. هو ليس (هى بن
يقظان) أو (روبنسون كروزو) .. لابد من سيارة أو أشخاص
يجلبون له المؤن ، ونحن سنلقى هؤلاء ..

هناك مصيبة قادمة .. لا أعرف ما هى لكنها آتية حتماً ..

* * *

حياتنا جميلة فعلاً هنا ..

الرجلان يقومان بالاستكشاف وإعداد الكهف ليكون أكثر راحة ..
الفتاة تطهو المعطبات التى نجدها .. قراءة المخطوطات فى السماء
على ضوء شمعة .. الجلوس فى الصحراء المظلمة الساكنة ليلاً
ومراقبة النجوم فى صورتها الأولى كما خلقها الله .. ثم النوم
فى الكهف أو على الرمال .. لاحظ أن أحداً يظل ساهراً للأبد ..
أعتقد أننا لمضينا يومين أو أكثر ..

لكنى لاحظت أننا تروح ونجىء ثم تعود لذات البقعة .. جوار
علامة SOS العملاقة ، نرفع عيوننا للسماء وننتظر .. معنى هذا
أننا لم نتأقلم بعد لهذه الدرجة .. ما زلنا نفكر فى الشوارع
والسيارات والتلفزيون ..

لم يكن أعرف أن اسمه (فان ثورن) .. لقد نسينا الجميع
على ما اعتقد .. لكن (فان ثورن) الذي يشبه أبطال القصص
للمصورة كان كالشعراء الذين تسيطر عليهم فكرة واحدة .. لم
يكن ينوي التوقف عن مسح المنطقة ..

هكذا جاء ذلك اليوم الذي بدأت الشمس تتحدر فيه وراء
الكهوف ..

كثت (ميمونيستا) تعد لنا طعام العشاء من بعض اللواكه التي
حصلنا عليها من البومثمن .. وكان (فاسيلي) يذبل شيئاً ما على
مدخل الكهف ..

نظرت إلى رمال الصحراء حيث يرتمي ظل الكهوف إلى بعد ..

هنا رأيت ذلك الكائن الذي ملأ قلبي طرباً .. لميركات العزيز ..
للشمس الذي يقف على ساقيه الخلفيتين متشعباً للهواء في
فضول .. أسيرة كاملة .. مجموعة من العيون للسود التي تجمع
بين الوداعة والفضول والوجل تنظر لي ..

أجمل ما في هذا الكائن أنه لا يقترب منك أبداً ولا يتعد .. إنه
الفضول مجسداً ..

أثقت نحو تلك الأسيرة بقطعة من اللحم المقدد الذي يحتفظ به
للفقيد (سكوتى) ..

لكنها لم تنال بين كفتي ليله .. رأيت تلك الحوالت ترفع رعوها
المشرقية لأعلى أصلاً إلى السماء .. كفتها تصفى لشيء ..
بالفعل هو كذلك ..

محرك طائرة .. محرك طائرة قادم من لا مكان ..
في ذات اللحظة وثب (فلسولى) من أعلى صاروخاً :
- « طائرة ! »

ولفت (سيمونيوتا) ما بيدها على الرمال ، وصلت :
- « طائرة ! »

ومددت يداً ترتجف لأشعل الرقائى .. لن تتكرر هذه الفرصة
أبداً فالمساعة ساعة وهن ضوء .. للغمشة ستجعل نبرقتنا عالية
جداً واضحة جداً ..

يجرى الذهب على الرقائى .. بمسرة .. بمسرة ..

يتوهج المعن .. وعلى مساحة شاسعة من الرمال تبلغ نحو
عشرة أمتار عرضاً وستة طولاً اشتعلت الكلمة SOS .. وشعرت
بالتشعيرة من روعة وثقة وضخامة ما قمنا به ..

لنقتنا أيها الغنى .. لنقتنا يا لحنى !

مكنت يدي إلى حزاسي لأنفذ الجزء الثانى من الخطوة .. لنقط
يجب أن يحوم حولنا أولاً ..

ظهرت الطائرة أخيراً .. نراها بوضوح .. كشالاتها مضاءة
 فى هذه الساعة السوداء التى يتداخل فيها الإبصار مع العسى ..
 الملكيرى أت من أجلتنا نحن ..

لن يفشل .. سيراتنا .. أعرف هذا .. أو من به ..
 يا رب !

(سيمونيتا) تبتهل بعبارات ذات طابع كاثوليكي واضح ، بينما
 (فاسيلى) - الذى قال إنه ملحد مراراً - يردد أدعية بالروسية ..
 لا أعرف ما يقول لكنه بالتأكيد يبتهل لله أن يراتنا هذا للطيار ..
 الطائرة تدور .. تدور .. ليس لهذا سوى معنى واحد .. لقد
 رأتنا !

تتوارى الطائرة وراء خط الكهوف كأنها دخلت قرص الشمس
 لتنتحر فيه ، ثم هو ذا ظلها يظهر على رمال الصحراء من جديد ..
 هنا قررت أن أنهى الشك باليقين ..

رفعت مهندس الإشارة وأطلقت .. لارتفعت الطائرة المشتعلة فى
 السماء لترسم ذلك القوس الخالد وتوهجت الرمال ووجوهنا ثم
 تلاشت ..

الآن تحوم الطائرة من جديد ..

لا يوجد مكان للهبوط ولو كانت طائرة هليوكوبتر لانتهت
القصة هنا ..

لكنه بالتأكيد يفكر فيما يجب عمله ..

بعد قليل تولت الطائرة وانطفت النيران .. ساد الصمت وفر
(الميركات) ..

لكن رسالتنا كانت قد بلغت هدفها ..

15- فان ثودن ..

كما توقعنا لم يظهر أحد إلا عند الفجر ..

يمكنهم التنقيب عنا بالكشافات فى الظلام ، لكن ما داعى ذلك ؟
 قنا استطعنا البقاء أحياء حتى هذه اللحظة فلا يمنع شيء من أن
 نبقى أحياء ليلة أخرى ..

كانت ليلة باردة وقد نمنا جميعاً فى الكهف ، وكنت أصلى
 للفجر عندما سمعت صوت الهليوكوبتر تحلق فوق المكان .

أيقظت الاثنين بسرعة وخرجنا مصرعين ، إلى حيث كانت
 الهليوكوبتر تتحدر إلى الأرض وهى تدير حول نفسها بتلك الطريقة
 القريبة التى لا أعرف أن الهليوكوبتر تمارسها إلا لدى إصابة
 مروحة الذيل .. يبدو أنه نوع من (الحرقنة) أو الإبهل .. لا أعرف
 بالضبط ..

عاصفة رمل جالحة تهب فى الصحراء بفعل المراوح وتجعل
 الرؤية مستحيلة ..

حسنا عولنا بالدينا .. بينما راح الوحش المعنى يهدم أخيراً ..

ومن الطائرة ترجل (فان ثورن) .. أنتم تعرفونه من قبل لذا لن أجرى التعارف ..

كما كنت كان كتلة من العضلات وله ذقن مربعة مشقوقة ممتازة لتلقى اللكمات .. عندما يرغبون في المرة القادمة في شخص يؤدي أدوار باتمان أو سوبرمان فليهم أن يتذكروا هذا الرجل .. طبعاً بعد صبغ رأسه الهولندي الأشقر بالنون الأسود ..

كان يتكلم تلك الإنجليزية اللعينة التي يتكلمها الهولنديون والتي تخلو من أي حرف (سين) أو (ذال) .. فقط هناك الكثير من (الشين) و(الجيم) غير المعطشة ..

- « أنا الطيار (فان ثورن) من (أهنجتون) .. أنتم أطباء تلك الوحدة .. نسيت اسمها .. »

قال (فاسيلي) وهو يصفحه :

- « (شافاري) .. »

- « (شافاري) .. آه .. لين (فولفي) ؟ »

تبادلنا النظرات .. هذه هي لحظة الحقيقة ..

(فولفى) مات لديها الرجل الشجاع .. نعتقد أن (سكوتى سميت) قتله ..

بدأت عليه الحيرة وعدم الفهم . استدرك ليقلول أمراً ما للطيار الذى جلس فى الطائرة .. طيار من الزولو عما هو واضح .. وقال لنا مفسراً :

- « ليست هذه حملة إنقاذ منظمة .. لا أحد يعرف أنني هنا .. هذه طائرة طلبتها على مسئوليتى من (الإنجئون) .. للطيار القريبى يدعى (نيليزيوى) وهو صديقى .. كلهم يعتقد أنكم هلكتم .. »

ثم وضع ذراعاً على كتف (لانسلى) وذراعاً على كتف (سيمونيتا) ، وقال :

- « هلا أختتمونى إلى بيتكم ؟ أريد أن أسمع كل هذا بهدوء .. »

هكذا تركنا الطائرة واتجهت إلى الكهف ..

منذ اللحظة الأولى تصرف (فان ثورن) كصاحب بيت ..

تجه إلى الصناديق الموضوعة وفتح واحدًا منها .. أخرج رجلجة ويسكى - لم أعرف لها نفسى أن هناك ويسكى عند (سكوتى سميث) - وفتحها وصب لنفسه بعضها .. ثم جلس إلى المنضدة لوحيدة هنا .. هكذا حكى لنا وحكىنا له كل شىء .. ومنه عرفنا قصة حملاته المستمرة وبعثه عنا ..

قال لنا :

- « إن الطريقة التى أعلنتم بها عن أنفسكم عبقرية .. يجب أن تدخل كتب سلاح الإشارة .. كان مشهد علامة SOS واضحًا على ارتفاع ساحل .. لابد من أعصى يقود الطائرة كى لا يراها .. » سألته (سيمونيتا) التى ظلت صامتة حتى تلك اللحظة :

- « ما رأيك فى قصة (أرشيبالد لينوكس) () هذه ؟ »

قال وهو يحك شعره الأشقر :

- « لا أستطيع الحكم . هذا مخبول اعتبر نفسه (سكوتى سميث) .. لا أعرفه لكنى أعرف أن كل البريطانيين مجانين لو طلبتم رأى الذى لن يخلو من التعصب العرقى طبعًا .. أى هولندي فى جنوب إفريقيا يصاب بالحساسية لدى سماع لفظة

(بريطانى) .. سولنا نظم الكثير من هذه الأوراق .. لقد أنتهى دوركم فى القصة وجاء دور الشرطة .. »

قلت له مشيراً إلى صندوق على الأرض جوار الجدار :

- « كل أوراقه هنا .. هناك الطيد من الصور الفوتوغرافية كذلك .. »

- « جميل .. جميل .. »

ونهمض معسكاً بالزجاجة نيكملها فى الطريق ، وقال :

- « سوف نحملكم إلى (أبنجتون) .. ونجد طريقة تعيدكم إلى وحدة .. نسيت اسمها .. »

- « سافارى .. »

- « نعم .. نعم .. (سافارى) .. »

هنا وضعت (سيمونيتا) يديها فى خصرتها ، وقالت فى شيء من تحدأ :

- « سيد (فان ثورن) .. أنا ذكرت اسم (أرشيلد لينوكس) .. »

وعرفت أنت على الفور أننا نتحدث عن (سكوتى مميث) .. نحن لم نذكر الاسم الأول قط .. هل لديك تفسير ؟ »

هذه هي لحظة الحقيقة !

تبادلت ومن معى النظرات .. كيف لم ألحظ هذا ؟

نظرت إلى (سيمونيّا) ، وقتت :

- « لم يسمع الاسم جيداً يا (سيمونيّا) .. أنا نفسي لم ألتبه لهذا .. عندما تكلم عن (مايكل جاكسون) وهزيمته فى حرب فيتنام ، فإن عتلك تلقائياً تعرف أن (جكسون) يعنى (نيكسون) .. هناك نوع من (التصحیح الذاتى للا شعورى) فى أذهننا .. »

قالت فى اتصال :

- « ليس عندما تكون عندى صورة (مايكل جاكسون) مع السيد (فان ثورن) ! »

نظرنا لها فى غباء ، فأردفت :

- « النساء تلاحظ خيراً من الرجال بكثير .. ضمن الصور الخاصة بـ (سكوتى سميث) الجديد كانت صورة له مع طيار هولندى وسيم يقفان أمام طائرة .. هى الطائرة ذاتها .. والطيار هو السيد (فان ثورن) نفسه ! »

وأشارت إلى اليوم صور ملقى بإهمال فوق الصناديق ..

في هذه اللحظة حدث ما نخشاه ..

إن النساء ذقنات للملاحظة لكنهن مندفعات .. كم من امرأة
ورطت زوجها في مشاجرة مع بطل مصارعة ، ثم وقفت تولول
وتصرخ بينما زوجها يتحول إلى كتلة .. عندما تلقين تهديداتك
يا (سيمونيتا) كان عليك أن تقطعي هذا في لحظة نكون فيها
متأهبين .. نكون فيها الأقوى ..

الآن يخرج السيد (فان ثورن) من سترته الجلدية مصدعنا
عملاً بصوبه لنا .. ويقول :

« أعتقد أنني مدين لكم بعض التفسيرات ! »

16- الشريكان ..

أخرج (فان ثورن) سيجاراً أشفه .. ثم جلس على أحد الصناديق ، وقال :

- « يجب أولاً أن لنكر أنني كنت أبحث عنكم لإقلاكم .. هذه حقيقة .. إن (فولفى) كان صديقى وأنا لم أتحمل لحظة أن يكون هناك أحياء ضلوا طريقهم فى هذه الصحراء اللعينة .. أنا أعرفها وأعرف أن فرصة النجاة معدومة .. هذه نقطة .. »

ثم نفث سحابة كثيفة من الدخان ، وقال :

- « الجزء الثانى من القصة صحيح تماماً .. أنا و (أرشيبالد لينوكس) شريكان .. يمكن القول أننا كنا من المرتزقة .. ثم احترق وجهه وجن تماماً ، وتصور أنه تنسخ روح جده (سكوتى سميت) .. لقد سرى جنماته من قبره وراح يطارد البوشمن فى صحارى كالاهارى .. كان هذا عملاً قذراً خلصة لنا توقفنا عنه منذ زمن .. »

سأله (سيمونيتا) :

- « هل يعنى هذا أننا كننا نقتل البوشمن من أجل الحصول على الهياكل العظمية ؟ »

- « ليس بالضبط .. »

قال (فان ثورن) :

« حتى العام 1950 لم يعبأ أحد بالبوشمن ولم يسمع عنهم كثيرون ، حتى صدر كتاب للمؤلف الجنوب الأفريقى (فان در بوست) اسمه (عالم كالاهارى المفقود) ، وقد تحول لمسلسل تلفزيونى شهير .. هكذا عرف كل العالم من هم البوشمن .. هؤلاء القوم مشكلة حقيقية .. إن الحضارة لم تعد تقبل وجود هؤلاء ، وأنتم تعرفون كيف يهينهم الجميع .. أحياناً هم البوشمن (أى رجال الأحراش) وأحياناً هم سان (أى الذين لا يملكون) .. حتى كلمة (باماروا Basarwa) التى يقبلها بعض البوشمن باعتبارها أكثرهم إهانة ..

« فى هذا الكثير من التعصب والخفاء بلا شك .. أنتم أطباء وستفهمون ما أقول بشكل أفضل .. هناك نوع من الجينات على الكروموسوم ٧ الخاص بهؤلاء القوم ، ينتقل نقياً عبر الأجيال .. هذا الجين موجود لدى كل أجناس الأرض وإن كانت أنقى صورة له لدى البوشمن .. هل تعرفون معنى هذا ؟ معناه أنه من البوشمن جاءت كل أجناس الأرض .. إنهم أجدادك بشكل أو بآخر ..

« برغم هذا كان صيد البوشمن نشاطاً رياضياً مسموح به .. وفى عام 1870 تقرض آخر البوشمن من (الكيب) نتيجة لكثرة

الصيد .. آخر رخصة تسمح بصيد البوشمن أصدرتها لأميريا عام 1936 .. بعد هذا صار تجويعهم أقرب إلى التحضر ، ولتتم تعرفون أن عددهم انخفض من عدة ملايين إلى مائة ألف ..

« في التسعينات من القرن العشرين ، راحت حكومة يتسوقا تحاول نقل هؤلاء من المحميات التي بنتها لهم في قلب كالاهارى ، وهي مخالفة دستورية صريحة لأن القتلون يكفل لهم المعاملة كمواطنين يتسوقيين .. المشكلة هي أن لماكن إقامة البوشمن الحالية تصلح مزارات سياحية ممتازة .. وهي مهمة للتفتيق عن اللصص .. إن ثروة من اللصص توجد في هذه المناطق ، ومن الصيد أن تضحي بها من أجل حفنة من اللعارة ..

« عومل البوشمن معاملة قديمة بين طرد بقوات الجيش والتهديد .. إلخ .. تم تصف مضخة الماء الرئيسية التي ترويههم ومنعوا من الصيد والجمع .. هذا هو الوقت الذي وجدت فيه أطراف معينة أنها بحاجة لنشاط المرتقة .. كنت أنا من المختارين وكان (لينوكس) .. وقد أطلقوا لنا حرية التصرف ، لذا قررنا أن نعد لأذهان هؤلاء البدقيين أسطورة (سكوتى سميت) .. صاحب الفكرة كان حفيده .. قمنا ببضع عمليات محدودة قريبة .. بضعة هياكل بجدها هؤلاء قرب أكوأخهم كان لها تأثير السحر ، وأد أخليت مساحات شاسعة من أرضهم خوفاً من شبح الكلبن سميت ..

« اليوم يعيش أكثر البوشمن في معسكرات محاصرة ، وهم لا يملكون مصدر رزق سوى بيع زوجاتهم .. هناك من يفرون من هذه المعسكرات إلى (كالا هاري) ثانية ..

« في العام 2006 صدر حكم من المحكمة يقول إن نقل البوشمن من محمياتهم الأصلية غير قانوني^(*) .. لكن الحكم لم يلزم الحكومة البتسوانية بشيء .. »

سألته عند هذه النقطة :

- « متى نشأ الخلاف بينك و (لينوكس) ؟ »

قال (فان ثورن) :

- « هذه كانت حقبة قذرة من حياتنا .. لقد اعتزلت هذا العمل وصرت طياراً أحياناً .. لكن المقبول (لينوكس) جن تماماً بعد ما احترق وجهه .. اختفى عن الأنظار مع أوراقه وصوره ، وبدأ يقتل البوشمن في كالا هاري ويسلخهم إلى آخر هذا قهراء .. سمعت القصة مراراً وكنت أعرف جيداً أنه هو المسئول وأنه يبلغ ويجنب الأنظار لنا .. أقتل اثنين أو ثلاثة فلن يهتم أحد .. أقتل واحداً يومياً ولمسوف تجد الجيش كله في ترك .. لا أحب أن تطفو القصة لنسطح أو تحقق فيها أطراف أخرى .. المشكلة هي أنه يعرف أكثر مما يجب وقد جن .. أي أن صمته لم يعد مضموناً ، دعك من أنه قد يموت ويتعرض أوراقه للخطر .. كيف يمكن أن أجده ؟

(*) صدر هذا الحكم بالفعل منذ شهر ونصف عندما تقرا هذا الكتاب .

منذ أيام خيل لي أنني رأيته يمشي بين قنور الملح لكنه أطلق على الرصاص في جشع فلم أستطع معرفة ما هو أكثر ..

« لكن السيف ظل معلقاً قرب حلقى .. أنتم تعرفون الجرائم ضد الإنسانية وكس هذا الكلام الفارغ .. لا أريد أن أجد نفسي خلف القضبان بعد ما استقرت بي الأمور .. فجأة وجدتكم في الصحراء ووجدت أنكم قتلتكم (لينوكس) وأن كل أوراقه معكم ! هذا حظ حسن لم أتصوره .. هذا دليل على أن الخير يلوز في النهاية ! كنت أبحث عنكم لأنكم فأنقذت نفسي ! »

ثم نظر إلى فوهة مسدده ، وقال بلهجة ذات معنى :

- « وضعتم لئتم ! »

ونظر لي متصلاً :

- « أين الملفات ؟ »

أشرت بلا كلام إلى صندوق في ركن المكان جوار صناديق النخيرة ..

اتجه إليه وهو ينظر لنا باسماً ، ووضع الزجاجاة على الأرض ومد يده يتأكد من أن الملفات موجودة ..

فجأة أطلق صرخة ..

17 - رجل الرمال ..

عندما صرخ سقط المسلس منه على الأرض ..
ورأيت فى رعب أن عقرها يزحف مبتعدًا على الأرض .. لقد
خرج من الصندوق ..
فجأة رأيت ثلاثة عقارب أخرى .. أحدها يتسلق ذراع الرجل
ويغرس زياته فى اللحم بحقد لا شك فيه ..
سقط للرجل على الأرض وهو يسب بالهولندية .. هنا زحف
عقربان ليتسلقا بطنه ..
إن الصندوق ملىء بالعقارب . لا شك فى هذا ..
كان يصرخ ويحاول تحرّك .. ثم تصلب تمامًا ..
أخيرًا هدأت جثته .. طيار هولندى وسيم يرقد وجواره على
الأرض مسدس وسيف وزجاجة ويسكى ما زال للسائل يتدفق
منها ..

تبادلنا النظرات فى رعب .. وسألت (سيمونوتا) :
« أنت فتحت هذا الصندوق أمس .. أليس كذلك ؟ »
قلت وهى ترتجف :

« ليس أقل من عشر مرات .. لم يكن يحوى إلا علفات ..
أنت تعرف كما أعرف أن هذا أمر لا يمكن تفسيره .. »
ثم همست وهى تغمض عينيها :

« (مارثا) 11 »

قال (فاسيلي) فى رعب :

« الآن لرى أن الحل الوحيد هو أن نهرع إلى الطائرة
ونتغلب على الطيار .. »

« يا سلام ؟ والفرار ؟ »

قال وهو يلهث :

« لدى فكرة لا بأس بها عن الطيران .. كنت فى مدرسة
تعليم طيران فى (كريف) .. على الأقل لن اصطدم بشيء فى
الصحراء .. »

هكذا هرعنا إلى الخارج ..

نزلنا فى المنحدر إلى حيث كانت الطائرة .. سوف نحكى قصة
سخيفة عن المرض الغريب الذى أصاب (فان ثورن) وكيف أننا
بحاجة إلى عون الطيار .. عندما يترجل من الطائرة سنضربه
نحن الثلاثة . لن نتركه فى الصحراء ليموت بل سنحمله معنا
مقيداً ..

وصلنا إلى الطائرة وقرعنا على زجاج قمرة الطيار عدة مرات ..
ثم تهبنا الحقيقة ..

هذا الرجل ليس ناعما .. هناك عقرب يزحف فوق عنقه ..

حملنا جثة الطيار وتأكدنا من أن الطائرة خالية من العقارب ..
لقد كان فيها خمسة تخلصنا منها ..

وسرعان ما كنا نثب إلى الداخل .. راح (قاسمى) ينحس
لوحة القيادة ويتذكر ماذا كان يفعل ماذا ..

ثم قال وهو يدل بطرف لسانه شفته السفلى :

- « مثل السيارة .. مثل السيارة .. »

قلت لى غيظ :

- « هذا لا يطمئننى على الإطلاق .. أنا لا أعرف كيف أقود

سيارة ! »

قال مفكراً وقد بدأت المروحة الكبرى تدور :

- « (لبيجتون) .. سوف نقصد (لبيجتون) أو أى تجمع بشرى

نلقاه .. »

- « ولا تدخل حدود بتسواتنا من فضلك .. »

- « لا تقلق .. سوف أتجه للجنوب .. فقط للجنوب لشرقي .. »

بدأت الطائرة ترتفع .. الأرض تبعد .. نراها من أعلى .. نرى
الكهوف .. نرى جثة الطير .. نرى قهري (سكوتى سميت)
وزوجته .. نرى علامة SOS للمنطلة التي بدأت الرمل تغطيها ..
نرى الميركات وشجر شوكة الجمل .. نرى الأطباء والوعول
والتياتل ..

نرى (كالاهاري) ...

الرمل تتطاير في كل مكان .. يوم نموت سيمحو النسيم
الرقبي آثار أقدامنا على الرمل .. بعدما يلغى النسيم ، ترى من
يخبر الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة في فجر الزمان ؟

كنا نحلق بسرعة الآن عندما صاحت (سيمونيّا) وهي تشير
إلى الأرض :

- « انظرا ! »

لم يكن من الممكن أن نتهم السراب أو الهلوس بهذا .. إنها
امرأة سمراء تلف وسط الصحراء وتلوح بيدها لنا ..

هتف (السيولى) :

- « هل نزل ؟ .. »

قلت له فى جنون :

- « لا .. ربما لا تقدر على الارتفاع ثانية .. خالبنا نو هبطنا

نن نجد أى شىء .. »

نحن لم نر (مارثا) .. يجب أن نفتتح بهذا على لا نحن ..

ثمة أشياء تعرف أنها حدثت ولكن لا بد من أن ننساها ..

(مارثا) ساحرة فعلاً .. ظهرت فى حياتنا بشكل غير مسبوقة ..
وانقذتنا مرتين بطاربها .. برغم هذا اختارت أن تقتلها للعارب
أو هذا ما خيل لنا .. ربما هى لم تمت قط ..

كيف خرجت من الطائرة ؟ حتى هذه اللحظة لم نجد إجابة
مقنعة .. يبدو أن (نظرية الشح) تصل جيداً بالفعل ..

والطائرة تبتعد ..

هتفت (سيمونيتا) :

- « أعتقد أن (كالاهارى) تخلصت من رجل الرمال ! »

قلت فى غموض :

- « تذكرى أن (مارثا) كانت تتكلم عن رجل الرمال ، لكنها لم

تقل قط إنه (سكوتى سميث) .. »

قال (فاسيني) بصوت عال :

- « هل تريدون رأيي ؟ أرى أن رجل الرمال الحقيقي هو محارب البوشمن .. ليس مثله أحد في الحياة هنا .. إن الرمال مملكته .. »

يوم نموت سيمحو التسميم الرقيق آثار الأمانا على الرمال ..
بعدها يقنى التسميم ، ترى من يخبر الأبدية أننا مشينا هاهنا مرة
في فجر الزمان ؟

يبدو أنني غفوت قليلاً بسبب الاهتزاز وصوت المحرك ..
سمعت آخر كلمات قلتها (مارثا) وهي تلفظ نفسها
الأخيرة :

- « أنت .. أنت يا (علاء) رجل الرمال .. منذ تعلقت بك وأنا
أسمعك كذا في سرى .. نحن نتخيل مصر صحراء شاسعة ، وبما
أنك مصرى فقد أطلقت عليك هذا الاسم .. لا يوجد رجل رمال
سواك .. على الأقل بالنسبة لى .. »

وشخصت عيناها .. لقد رحلت أو هكذا حسبت ...

رجل الرمال كان أنا .. إذا كنت قد افترضت أنه (سكوتى
سميث) فهذا خطئى وليس خطأها ..

فيما بعد سوف أحاول فهم سبب إعجاب الساحرات بى ..
خاصة إذا كن أفريقيات .. أما الآن فلنا متعب وأريد أن أنام ..

أريد أن أجد تفسيراً لكن هذا للأسف لا يعطينا كثيراً هنا فى
(سافارى) ..

د. علاء عبد العظيم

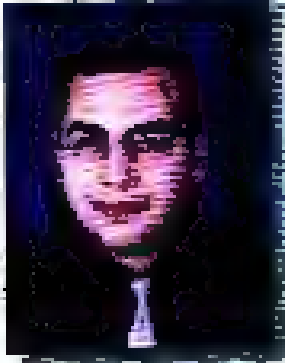
من قرب دهرهان

تمت بحمد الله

سافاري

تفاسرات طيب شام يعاين
لكي نخل منها ولكي نخل طيبنا

روايات مصرية الجيب



في يومها قال لهم

الأخير

يومها قال لهم (فان راين) :

.. لا يدنون أحدكم من قدور الملح .. أنا كنت هناك ورأيتهم
في ضوء الشمس .. هياكل هؤلاء البوشمن .. عشرة هياكل
عظمية ملقاة جنباً إلى جنب حتى تجفها الشمس ...
تذكرت (سكوتى سميت) على الفور .. إنه مدفون هنا في
(أبنجتون) ... هل علمتم ذلك ؟ .. أنا ذهبت إلى هناك ..
هل تعرفون ما رأيته ؟ ... لقد نبت قبره ((..)) (سكوتى)
العجوز لم يعد نائماً في قبره .. إنه هناك وسط (كالاهازي)
يصطاد البوشمن ... أنا أعرف ذلك ... كل البوشمن
يعرفون ذلك ..

العدد القادم

NDE

المؤسسة

العربية للحيلة

مجمع ومكتب التحرير بالقاهرة والتاسعة

الشمس في مصر 300

وما يعادله بالذوار الأمريكي

في سائر الدول العربية والعالم

